مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار بمركز الخليج للأبحاث
Gulf Research Center Dialogue Lab

دراسات ثقافية

لمحات أوزبكية
رحلة في عصر التحولات

سيد محمود مبشر كاساني
طشقند

يناير 2026

مدخل:

د. زيد بن علي الفضيل

مدير البرنامج الثقافي والإعلامي

تمثل أسيا الوسطى أو ما يطلق عليها تاريخيا اسم تركستان (الغربية والشرقية) أحد أهم البقاع الجغرافية التي ارتبطت إنسانا وتاريخا بالمشرق العربي إجمالا، حيث انتشر أبناؤها في ثنايا الدولة العباسية ابتداء بعصر الخليفة المعتصم بالله الذي استقدم كثيرا من قبائل تلك الديار كعناصر عسكرية موالية له، وكان أن أطلق عليهم بعد ذلك اسم المماليك، الذين ومع مرور الوقت تمكنوا من السيطرة على مقاليد الحكم خلال عهد الدولة العباسية في العراق، ثم في الشام، وصولا إلى مصر، وباتت لهم بعد ذلك إمارات ودول متعددة كدولة المماليك بشقيها (البرجية والبحرية) في مصر، ودولة السلاجقة في بلاد الشام، ومن ثم العثمانيين في هضبة الأناضول التي أطلق عليها اسم تركيا، جراء كثرة القبائل التركية المستقرة بها، والتي شكلت هويتها حتى اليوم.

تلك كانت معالم الهجرة الأولى إلى المشرق العربي إجمالا، حيث استوطنوا فيها بعد ذلك، وباتوا جزءا من نسيجها وهويتها العربية الحضارية، وذلك خلال فترة العصور الوسطى والحديثة؛ على أن هجرتهم الجماعية الثانية إذا جاز القول، قد ابتدأت مع بداية الغزو الصيني والسوفيتي لبلادهم مطلع القرن العشرين الميلادي، حيث تعرضوا لكثير من العسف والتعذيب، وقتل كثير من أبنائهم وبخاصة المتعلمين والعلماء، وتم مصادرة أموالهم باسم الشيوعية، وأغلقت مساجدهم، كما تم منعهم من أداء عباداتهم، إلى غير ذلك من الأعمال التعسفية وجرائم الإبادة التي تعرضوا لها في تركستان الشرقية المحكومة من قبل الصين، وتركستان الغربية التي حكمت من قبل الاتحاد السوفيتي، والتي نحن بصددها في هذا المصنف عبر تسليط الضوء على جوانب مجتمعية في أحد دولها المستقلة وهي دولة "أوزبكستان".

في هذه الدراسة التي بين أيدينا، والتي كتبها على شكل مقالات متنوعة الباحث محمود

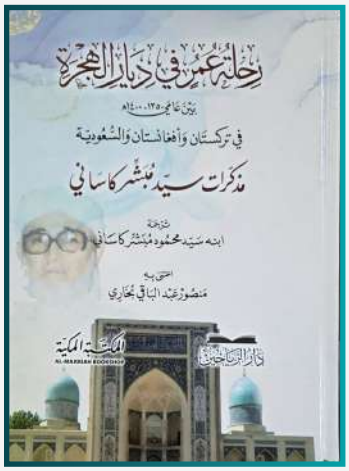

كاساني الحاصل على جائزة الدولة للترجمة والتي تحمل اسم الشاعر والمؤرخ والمترجم الأوزبكي "محمد رضا آكاهي" عن ترجمته لرواية "عقرب في المحراب" للأديب والمفكر الأوزبكي عبد الله قادري؛ نطل بشيء من التبصر على جوانب اجتماعية عديدة في إطار المجتمع الأوزبكي، كتبها أحد أبنائها ممن قُدر له أن يعيش مع والديه في أرض المملكة العربية السعودية فترة من الزمن، ثم وحين استقل وطنه مطلع عقد التسعين الميلادي، عاد مرة أخرى مع والديه إلى بلاده في هجرة معاكسة، ليستقر بها حتى اليوم، وليكتب تأملاته بعقل متجدد وروح مغايرة، فيغوص بنا في بعض جوانب حياتية برؤية واسعة، ونظرة مختلفة عن السائد بين أهله وذويه هناك، وفي كل هي وجهة نظره ورؤيته الثقافية الخاصة لطبيعة الأشياء، وليست بحثا علميا وفق

قواعد المنهج الاجتماعي أو السياسي.وواقع الحال فقد أردنا من نشر هذه المقالات بالرغم من طبيعتها الخاصة، في دراسة واحدة باسم "لمحات أوزبكية: رحلة في عصر التحولات"، حتى نسلط الضوء على نطاق جغرافي مهم في حضارتنا العربية المسلمة برؤية مجتمعية بسيطة وبعيدا عن التكلف المنهجي الذي قد يزيد بعض الصور تعقيدا، وعادة ما يظهر شيئا ويخفي أشياء أخرى.

كذلك فتتميز هذه المنطقة بأهمية كبرى في وعينا الثقافي، حيث وبالقدر الذي استقبلت أوطاننا كثيرا من أسر وعائلات تلك البلاد، بالقدر الذي استوطن بلادهم كثير من الأسر والعائلات العربية حال بواكير الفتح الإسلامي، وكان لهم الدور الفاعل في نشر الإسلام بين ربوع تلك القبائل التركية، بل وانصهروا معهم تصاهرا وحياة، وشكلوا بهم وبغيرهم أعمدة الحضارة العربية المسلمة في مدنها التاريخية وعلى رأسها سمرقند وبخارى وخوارزم وغيرها من المدن العريقة، وكل ذلك يحفز على أن نستعيد أوجه الوصال والاتصال بين المنطقتين سواء على الصعيد الاجتماعي والحياتي، أو على الصعيد السياسي والاقتصادي والأمني، والمهم أن تستعيد تلك المنطقة ثقافتها العربية المسلمة، التي شكلت جزءا كبيرا في محتواها الحضاري خلال القرون السالفة، وكان من جراء ذلك أن خرج منها الكثير من العلماء الذين شكلوا أعمدة في حضارتنا العربية المسلمة من قبيل: الإمام المحدث محمد بن إسماعيل البخاري، والإمام المحدث محمد بن عيسى الترمذي، والعلامة محمد بن موسى الخوارزمي، والعلامة أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، والعلامة أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وغيرهم.

أشير في هذا السياق إلى أن كاتبنا قد عاش ظروف الهجرة معنويا مرات عديدة، وذلك خلال تكرار ترحال والده المؤرخ السيد مبشر كاساني في عديد من البلدان، ويمكن استجلاء ذلك من سيرته التي صدرت بعنوان (رحلة عمر في ديار الهجرة في تركستان وأفغانستان والسعودية) باللغة الأوزبكية، وقام بترجمتها إلى اللغة العربية ابنه كاتبنا محمود كاساني، وتم نشرها من قبل المكتبة المكية ودار الرياحين.

وفيها روى الأب ظروف رحلته المبكرة بصحبة والدته وخاله إلى أفغانستان حال الغزو السوفيتي لبلادهم مطلع القرن العشرين، شارحا ظروف حياتهم الصعبة، وما واجهوه من متاعب

وضنك من قبل الحكومة الملكية في حينه، وهو ما اضطرهم إلى الهجرة إلى الحرمين الشريفين بالمملكة العربية السعودية، حيث وصلها في أواخر عهد الملك عبد العزيز يرحمه الله، ذاكرا مشاركته في مبايعة الملك سعود، ومتحدثا عن استقراره بمكة والطائف وزواجه من أسرة المرغلاني، على أن رحلته لم تتوقف عند هذا الحد، حيث اضطر للعودة إلى أفغانستان تلبية لرغبة والدته، وفي طريق عودته زار القدس وعمان في الأردن والعراق وإيران وصولا إلى أفغانستان،

بوابة ترحيبية من المهاجرين التركستانيين في جدة ١٩٥٣م بمناسبة بيعة الملك سعود بن عبدالعزيز ملكاً للبلاد، من اليسار: ظهور الدين، عبيدالله درويش نمنكاني، إسلام جان طاشكندي، سيد مظفر خان، مبارك خوجة كاساني، د.عبدالصمد مرغلاني، عبدالعزيز عسكر، "غير معروف"، شكر الله سمرقندي.

حيث استقر بها حتى بداية الغزو السوفيتي لها، ليقرر الهجرة مرة أخرى إلى المملكة العربية السعودية، وليستقر في هذه المرة بمدينة أبها بمنطقة عسير، وهي المدينة التي رسخت بمعالمها وذكرياتها في قلب كاتبنا محمود الذي كتب مقالة جياشة يُعبر فيها عن حبه لذلك المكان، وحنينه إلى مرابعها، وكيف أنه استشعر والدته في ثنايا أزقتها وحنايا بيتهم الذي حلّوا فيه خلال بقائهم بمدينة أبها.

هذا السياق يدعوني كباحث لأن أشير إلى قيمة المملكة العربية السعودية في وجدان أبناء الأمة الإسلامية، والتي لا ينظرون إليها بوصفها دولة سياسية وحسب، بل هي بمثابة الملجأ والأرض التي تستكين نفوسهم بالمقام بها، وتألف أرواحهم العيش مع أهلها، دون أن يشعروا بغربة مكان، أو يعانوا من آلام فقد الوطن، فالمملكة العربية السعودية تمثل الوطن الجامع لكل المسلمين جراء وجود الحرمين الشريفين، ومركزية شبه الجزيرة العربية في الذاكرة التاريخية المبكرة للسيرة النبوية، وبخاصة وأنها أي السعودية تحتل أربعة أخماسها.

أخيرا، تمثل هذه اللمحات من تاريخ أوزبكستان بموضوعاتها المتنوعة مفتاحا مبدئيا للوعي ببعض سمات المجتمع الأوزبكي بخاصة، ومدخلا لمعرفة بعض خصائص تاريخها المعاصر، ومرجعا مختصرا يوضح كيفية انتقال عديد من المجتمعات إلى بلاد أوزبكستان وفق سياسة الزعيم السوفيتي ستالين الذي مارس أبشع أنواع التهجير القسري لعديد من الشعوب، وكان منهم من تم تهجيره قسرا من بلاد ما وراء النهر (أسيا الوسطى) إلى بقاع بعيدة في الأرض السوفيتية، ومنهم من تم تهجيرهم من بلادهم إلى أوزبكستان كالكوريين والشيشان وغيرهم، وهو ما يمكن تلمس بعض ملامحه في ثنايا مقالات اللمحات التي بين أيدينا، والتي يرجو مركز الخليج للأبحاث ممثلا في برنامجه الثقافي والإعلامي أن يقضي معها القارئ أمتع الأوقات.

أوزبكستان منحة الحضارة في آسيا الوسطى

نادر الوثير

مؤلف كتاب: "بلاد ما وراء النهر: من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الروسي"

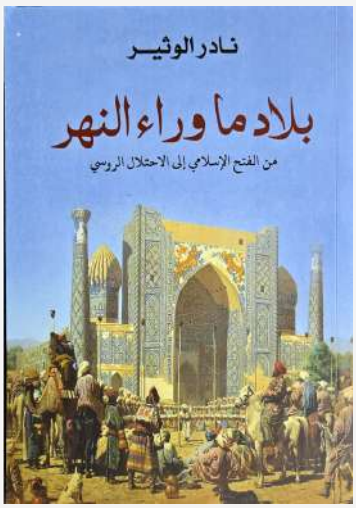

لا ريب أن الزائر لدولة أوزبكستان، الملقّبة بجوهرة آسيا الوسطى، سيلحظ بوضوح احتفاظها بملامح الحقبة السوفييتية؛ إذ ما تزال اللغة الروسية تشكّل اللغة الثانية بعد الأوزبكية، كما تبدو شوارعها الفسيحة وعمائرها المتعددة شاهدًا على ذلك الإرث، وإن غلب على كثير منها في السنوات الأخيرة طابع الحداثة والتجديد، غير أن أبرز ما يشدّ انتباه الزائر هو ما تزخر به البلاد من آثار عمرانية إسلامية بديعة، إضافة إلى كون الإسلام ما يزال الدين الأول والرسمي في الدولة.

سافرتُ إلى أوزبكستان أول مرة في ربيع عام 2017م مفتونا بروعة الاكتشاف، ثم تكررت زياراتي إليها بعد ذلك، وكان أولُ ما انتابني شعورٌ عارم بالدهشة والإعجاب حين وقفت على ما خلّفته الحضارة الإسلامية من تراث مادي وفكري فريد، فهذه البلاد مهدُ كبار العلماء، وموطنُ أجمل الآثار، وحضارةٌ عريقة نشأت على ضفّتي أعظم أنهار آسيا الوسطى، (جيحون وسيحون)، وفقًا لما ذكره المؤرخ التركي أكمل الدين إحسان أوغلو حين قال: "إن الحضارة العظيمة التي نشأت فيما بين النهرين على شاطئ سيحون وجيحون تحتل منزلة مرموقة بين حضارات العالم" (1).

ولا عجب أن يجد الزائر العربي نفسه غير غريب هناك، فالإسلام ما يزال حاضرًا بقوة في نفوس السكان، ويمكن القول إن أوزبكستان الواقعة في قلب آسيا الوسطى تمثّل إحدى أعظم مناطق العالم في العصور الوسطى، فهذه الرقعة الجغرافية تحتضن مدن طريق الحرير العريقة بخارى، وسمرقند، وطشقند، وخوارزم، وترمذ، وغيرها، التي تُعتبر من أبرز المراكز الحضارية الإسلامية أسوة ببغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة، وكانت مدارسها في بخارى، وسمرقند، وخوارزم، وغيرها، ملتقى العلماء والفلاسفة من الشرق والغرب.

شاع ذكر هذه البلاد في المصادر العربية باسم بلاد ما وراء النهر، لوقوعها خلف نهر جيحون، المعروف اليوم بـ«أمودريا»، وهو النهر الذي يشكّل اليوم الحدود الفاصلة بين أفغانستان وأوزبكستان، وقد أطلق العرب هذا الاسم يوم بلغت جيوشهم مدينة بلخ الأفغانية، فنظروا إلى ما وراء النهر نحو الشمال، وكانت تلك البلاد مجهولة لديهم كل الجهل، فسمّوها بذلك الاسم، وهو ما أكّده المستشرق لسترنج (2).

(1) عثمانخان عليموف: حضرت الإمام، ترجمة: عبد الحكيم عارفوف وعليشير سلطان، طشقند، 2013م، ص72.

(2) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1985م، 476.

لقد حبا الله مدن بلاد ما وراء النهر بطبيعة آسرة وجمالاً وافراً، فكان لسحرها أثر بالغ في استقطاب الرحّالة والشعراء والأدباء، قدامى ومحدثين، من أمثال ابن فضلان وابن حوقل والحموي وابن بطوطة وغيرهم، حيث قدّم هؤلاء روايات متقاربة اتفقت في مجملها على الإشارة إلى وفرة خيرات البلاد، ودماثة أخلاق أهلها، وقوة شوكتهم، وفي ذلك يقول ابن حوقل: "وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيرا وأهله يرجعون الى رغبة في الخير واستجابة لمن دعاهم إليه" (3).

وقد حافظت أوزبكستان على رونقها القديم، رغم كل ما نزل بها من نوازل وبخاصة حينما عصف بها غزو الجحافل المغولية في القرن السابع الهجري، والاستنزاف الممنهج خلال فترة تعرضها للاستعمار الروسي، وغيرها من فتن وكوارث كادت أن تمحي كل أثر جميل، وكانت علاقة العرب بتلك المنطقة ضاربة في الجذور منذ بداياتها، حينما حملت الكتائب العربية المجاهدة مشعل الرسالة إلى العالمين؛ وفتح المسلمون بلاد ما وراء النهر بداية القرن السابع الميلادي، وأخذوا يستقرون في مدنها ونشروا فيها تعاليم دينهم، وما لبثت عقيدة الإسلام أن ترسخت في نفوسهم، حتى أصبحت تلك البلاد جزءًا لا يتجزأ من البلاد الإسلامية.

كما ظلّت الثقافة العربية وعبر قرون طويلة، هي الثقافة السائدة والرائجة بين أهلها، ولا تزال تحتفظ بمكانتها الدينية الرفيعة رغم تعاقب الأزمنة وتراجع الحضور الحضاري العربي على الساحة العالمية، ولعلّه من الواجب على الباحثين إدراكُ القيمة الحضارية لأوزبكستان (ما وراء النهر) إذ تُعدّ هذه الرقعة الجغرافية من أغنى مناطق العالم الإسلامي تراثًا، حيث حفلت بتاريخ حافل بمظاهر العظمة والازدهار، تشهد له الصروح العمرانية الشامخة الباقية في بخارى وسمرقند وطشقند وخيوه وغيرها، كما يشهد له إرث علمائها وفقهائها وأدبائها وفلاسفتها، ولا تزال مؤلفاتهم وأفكارهم تمدّ الفكر البشري بما يشبه ضياء الشمس في إشراقه وتأثيره.

تجدر الإشارة إلى أن المسلمين قد أقاموا في هذه المنطقة دولاً كبرى تركت آثارًا بارزة في التاريخ الإسلامي، وكان من أشهرها الدولة السامانية التي ذكر المستشرق فامبري أن ما وراء النهر كانت تحت الساماني الملاذ الأثير عند العلماء المسلمين (4)، لما شهدته من نهضة حضارية، حتى بلغت عاصمتهم بخارى ذروة ازدهارها الفكري، وقال الثعالبي في القرن الرابع الهجري: "كانت بخارى في الدولة السامانية بمثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر" (5).

(3) أبو القاسم بن حوقل: صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، 1938، ص463، 464.

(4) أرمينيوس فامبري: تاريخ بخارى، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ص124

(5) الثعالبي: يتيمة الدهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ج4، ص96.

كما قامت الدولة الخوارزمية والقراخانية، غير أنّ الدولة التيمورية تُعَدّ أعظم هذه الدول، وكان الأمير تيمور، المعروف في المصادر العربية باسم تيمورلنك (ت807ه/1405م) هو من شيّد أركانها وجعلها أقوى دول عصره، وقد بلغت بلاد ما وراء النهر في عهده وفي عهود خلفائه ذروة ازدهارها السياسي والعمراني، حتى صارت من أهم المراكز الحضارية في العالم الإسلامي آنذاك، ولا سيما عاصمتهم سمرقند. وقد زار سمرقند في عهد تيمور الرحالة الإسباني كلافيجو في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، وخلّف مؤلَّفًا متميّزًا دوّن فيه مشاهداته وتوصيفاته الدقيقة لجمال سمرقند ومعالمها العمرانية الكبرى(6).

ولعلّ أبرز ما تميّزت به هذه البلاد يتمثّل في ذلك التراث العلمي الهائل الذي خلّفه علماؤها، من الشرعيّين والطبيعيّين على السواء، عبر قرون متطاولة. وقد أشار أحمد أمين إلى أنّ بلاد ما وراء النهر أخرجت ما لا يُحصى من رجال الحديث والفقه، الذين خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم (7). كما سبقه بهذا الرأي العلامة ابن خلدون حيث قال: "ويبلُغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصًا فيما وراء النهر، وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوافر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم" (8).

لقد شهدت هذه المنطقة حركة علمية مزدهرة، أفرزت نخبةً من أعظم العلماء في مختلف العلوم والفنون. ويكفي أن نشير، على سبيل المثال، إلى الإمام البخاري صاحب الصحيح، والإمام الترمذي المحدث، وإلى الفيلسوف ابن سينا، والرياضي الخوارزمي، والفلكي أحمد الفرغاني، والعلامة البيروني، والفارابي الملقّب بالمعلم الثاني، والفقيه أبي منصور الماتريدي، والشيخ الصوفي بهاء الدين النقشبندي، والشاعر العربي أبو بكر الخوارزمي والأديب الفارسي العروضي السمرقندي، وغيرهم كثير.

ولا ريب أنّ كل دارس لتاريخ العلوم يدرك المكانة الكبرى التي يحتلها هؤلاء الأعلام في ميادينهم، وما خلّفوه من أثر علمي عميق ظل ممتدًا عبر العصور، كما تعزّز من القيمة الحضارية لهذه البلاد وفرةُ الآثار العمرانية الباقية في بخارى وسمرقند وخيوه وخوقند وطشقند، وتتنوع هذه المباني بين المدارس والمساجد والقصور والأضرحة المزخرفة التي تمثل ذروة الفن المعماري الإسلامي، فضلًا عن المرصد الفلكي في سمرقند والأسواق القديمة في بخارى، ولأهميّتها الفنية والمعمارية ومكانتها في التاريخ، أُدرج معظم هذه المعالم ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، بوصفها شواهد ماثلة على ازدهار العمران ورفعة الفن في تلك المنطقة عبر العصور.

(6) كلافيجو: سفارة إلى تيمور لنك، ترجمة: سهيل زكار، التكوين، دمشق، 2008م، 350-240.

(7) أحمد أمين: ظهر الإسلام، المكتبة العصرية، بيروت، 2013، ج1، 203

(8) عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م، ج3، ص1001

وسنقتصر في هذه العجالة على ثلاث مدن أوزبكية، وهي: طشقند وسمرقند وبخارى، لما تحتفظ به كلٌّ منها من عمائر آثاريه ذات قيمة تاريخية، تجعلها مقصدًا مهمًّا لدراسة التاريخ والآثار الإسلامية، وأول هذه المدن العاصمة الأوزبكية طشقند، التي عُرفت في التراث العربي باسم الشاش، وأثناء التجوال في هذه المدينة الباذخة يلحظ الزائر كثافة أشجارها المنتشرة في جميع أنحائها، ونهرها الاصطناعي الذي حفره السوفييت، وشوارعها الواسعة الممتدة، وعمائرها القديمة التي يغلب عليها الطابع السوفييتي، وتتزيّن المدينة بحدائق غنّاء وميادين فسيحة، من أبرزها ميدان الأمير تيمور الذي يتوسطه تمثال ضخم له.

وتُعد طشقند أكثر مدن أوزبكستان تقدّمًا من الناحية الاقتصادية بما تضمّه من مصانع متعددة وموارد طبيعية مهمة كالذهب والفضة. وقد تجاوز عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة وفق إحصاء اللجنة الحكومية للإحصاء في جمهورية أوزبكستان (9)، جلهم من الأوزبك والباقي مزيج من الأعراق المختلفة طاجيك وروس وكازاخ وغيرهم.

وتحتوي طشقند على عدد من المعالم البارزة، أهمها مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه (10)، وضريح الفقيه القفال الشاشي المعروف باسم حضرة إمام، إضافة إلى المدارس القديمة والمتاحف، وفي مقدمتها متحف الأمير تيمور الذي افتُتح سنة 1996م.

ولا يزال الأمير تيمور يحظى بتقدير كبير في آسيا الوسطى لما خلّفه من آثار معمارية وثقافية جعلت بلاد ما وراء النهر من أعظم حواضر العالم الإسلامي في زمانه، فلم يكن تيمور مجرد سلطان همجي يقتل الكبار والصغار، أو يقضي على معالم الحضارة في مناظر هائلة من السفك والتدمير، وقد شُيّد متحف الأمير تيمور على الطراز التيموري، تعلوه قبة زرقاء ضخمة شبيهة بقبة ضريحه في سمرقند، ويضم أكثر من خمسة آلاف قطعة أثرية تمثل التراث التيموري وتاريخ المنطقة.

وأما سمرقند الملقّبة بحُلية وجه الأرض التي ازداد حضورها في الوجدان العربي بفضل رواية أمين معلوف "سمرقند"، وهي الياقوتة الراقدة على ضفاف نهر زرفشان، ودُرّة بلاد ما وراء النهر، وتعتبر كذلك مركزًا عريقًا للعلم والتجارة، وسمرقند اليوم مستودع الآثار والذكريات الإسلامية؛ إذ ما تزال تحتفظ بكثير من معالم عصرها الإسلامي، وإن كانت هذه المعالم تتوارى شيئًا فشيئًا خلف مظاهر التجديد والحداثة، وتجتمع معظم صروحها التاريخية في نطاق واحد داخل المدينة القديمة، حيث يقف ميدان ريگستان ومدارسه الثلاث، ومجمع كُور أمير أي قبر الأمير تيمور، ومجموعة شاه زنده، ومسجد بيبي خانم، ومرصد ألغ بيك الفلكي، إلى جانب عدد من الأضرحة الباقية، شاهدةً على مجدٍ ممتد. وقد أجاد الكاتب المصري فهمي هويدي حين وصفها بقوله: "في سمرقند تخرج رغمًا عنك من خريطة العصر لتدخل في خزائن التاريخ" (11).

(9) Statistics Agency under the President of the Republic of Uzbekistan

(10) أثبتت منظمة اليونسكو نسبة هذا المصحف إلى عثمان رضي الله عنه، وأعطي شهادة سنة 2000م، انظر، عبد المنان عثمان، مراد جان، تاريخ المصحف العثماني بطشقند، ترجمة عبد الحكيم، دار ما وراء النهر، طشقند، ص47، 48.

(11) فهمي هويدي: مقال الطريق إلى سمرقند، مجلة العربي، عدد 258، مايو 1980م، ص66.

كانت بخارى من أعظم مدن آسيا الوسطى قبل الإسلام، ثم غدت بعد الفتح الإسلامي إحدى أهم القواعد الحضارية والسياسية، كما تميّزت بثرائها الزراعي والصناعي، واشتهرت بكثرة علمائها وعمائرها، ورغم ما أصابها من كوارث متلاحقة عبر العصور، ومن حرائق وتدمير ونهب، فقد حافظت على طابعها الإسلامي وتخطيطها العمراني القديم بوضوح.

لقد شهدت هذه المدينة العريقة تقلبات متباينة بين الازدهار والانحدار منذ دخول الإسلام إليها في القرن الأول الهجري وحتى مرحلة الاستقلال، ومن الناحية الأثرية، حافظت المدينة على ملامحها التاريخية؛ فهي غنية بمواقعها التراثية، إذ تضم نحو 997 موقعًا أثريًا، منها 660 موقعًا يُصنَّف إرثًا ثقافيًا. وقد حظيت بتقدير عالمي حين أُدرجت العديد من معالمها ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي (12).

تتمتع بخارى بمنزلة خاصة لدى المسلمين كونها قاعدة الإسلام في بلاد ما وراء النهر، والمدينة التي انتسب إليها أعظم محدث عرفته الحضارة الإسلامية، محمد بن إسماعيل البخاري، كما كانت بخارى تلقب بـ "قبة الإسلام" (13)، وكما ذكر الرئيس الأوزبكي الراحل إسلام كريموف في خطابه الافتتاحي خلال احتفال الذكرى السنوية على مرور 2500 لتأسيس بخارى في 19 أكتوبر 1997: "لقد اكتسبت بخارى شهرة عالمية لآلاف السنين لأنها قدمت مساهمة كبيرة في الحضارة العالمية، لا سيما في تطوير القيم الروحية والثقافية والدينية، وأصبحت واحدة من الأماكن المقدسة في بلادنا" (14).

بناءً على ما تقدّم، يتبيّن أن أوزبكستان تمتلك تاريخًا إسلاميًّا مجيدًا تراكَم عبر دولها المتعاقبة وعصورها المتنوعة، وهو إرث حضاريّ ما يزال حاضرًا في وجدان الذاكرة العالمية، وشاهدًا على إسهاماتها في مسيرة الحضارة الإسلامية، وقد عملت الحكومة الأوزبكية مؤخرًا على تطوير قطاع السياحة وجذب الزائرين، وبما أن أوزبكستان تُعدّ أرضًا غنية بالاكتشافات التاريخية والثقافية، فإنه لا ريب في أن البلاد ستفرض حضورها بقوة على خريطة السياحة العالمية مستقبلًا. كما أن مدنها التاريخية والثقافية تستحق أن تُدرج ضمن برامج الشركات السياحية، لا سيما تلك الموجهة إلى الزائرين من الدول العربية الذين سيقرؤن صفحات من تاريخ حضارتهم في تلك البلاد.

(12) Architectural Epigraphy of Uzbekistan: Bukhara: 40.

(13) أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي: تاريخ بخارى، ترجمة: أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1965م، ص87.

(14) Architectural Epigraphy of Uzbekistan: Bukhara: 35.

الفهرس

المقدمة 11

فتيل الاستعمار وتقسيم أسيا الوسطى 12

المجددون في تركستان – منور قاري عبد الرشيد 14

بدايات الغزو السوفيتي لأفغانستان 17

العودة لأوزبكستان: البحث عن العدالة في التشايخانة 19

عادات لم أعهدها: التملص من المشروب 22

الهوية الثقافية الأوزبكية 24

بواكير التوجه الإسلاموي في وادي فرغانة 26

عربات الموت السوفيتية 28

تحقيق في مكتب الكي جي بي (بتصرف) 30

أبناء أمير بخارى المحتجزين 35

وباء الكوليرا – طشقند 1892 37

حرب عرقية في فرغانة: صحن الفراولة الذي أشعل فرغانة 39

ترحيل الكوريين إلى أوزبكستان 43

النظام الشيوعي: وفر كل الخدمات وقتل روح المسؤولية 45

عربي في سوق ماشية طشقند 49

حكايتي مع الغجرية: من هي؟ ومن أين أتى قومها؟ 51

حفل الختان 55

جاري اليهودي 57

رحلة جوزيف وولف إلى بخارى 59

سائح هندي في بخارى 62

دماء في قصر خدايارخان 65

ورق سمرقند 67

أبها التي في القلب: لقاء بعد أكثر من ربع قرن 69

مقدمة الكاتب:

هذه لمحات من ذاكرتي؛ حيث وُلدتُ في أفغانستان، ثم اضطررتُ إلى مغادرتها مع والديّ جراء الغزو السوفيتي لها، راحلًا إلى المملكة العربية السعودية، حيث درستُ وعشتُ في ربوعها ريعان شبابي. وحين كبرتُ واشتدّ عودي، عدتُ إلى مسقط رأس أبي وجدي أوزبكستان، هذا البلد الذي أعيش في كنفه، وأتفيئ بظلاله، وأنتمي إليه قلبا وقالبا، فهو الوطن الأم الذي أنتمي إليه سلاليًا، ومع ذلك فلا تخلو مشاعري من بعض اضطراب بين وطن وُلدتُ فيه، ووطن عشتُ في ربوعه ريعان شبابي، ووطن أعيش فيه بقية حياتي، لكونه وطن والدي ووطن أجدادي. وحتما فقد جعلني هذا التمزّق أشعر بالاضطراب حينًا، وأفهم مشاعر أن يكون الإنسان لا منتميا إلا لإنسانيته، وأن ينظر إلى العالم بعيون واسعة، وقلب كبير، وعقل كلما ازداد هرمًا كلما توسعت لديه شقة الاحتفاء بإنسانيته.

أخيرا عزيز القارئ أترك بين يديك كومة مقالات كتبتها وفقا لظروفها وسياقها، وقد كتبتها بعيون مهاجر ومواطن في ذات الوقت، يستشعر غربة في بعض جوانب حياته، أردت من خلالها أن أشرح بعض جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية والحياتية لشعب أوزبكستان، وكان أن سرني إيمان مدير البرنامج الثقافي بمركز الخليج للأبحاث بقيمتها، وأتشرف بأن تصدر من قبلهم، فذلك فخر أعتز به، ويزيدني سعادة بالغة، لما للمركز من مكانة كبيرة في عالم مراكز الأبحاث، ولانتمائه وطنا لأرض عشت بها ريعان شبابي، وأحببت ساكنيها، وتضوَّع صدري هوائها، وأقصد بها المملكة العربية السعودية التي تركن إليها نفسي في غمرة ما أعيشه من تيه الانتماء.

جائزة الدولة لأفضل ترجمة إبداعية من الأوزبكية إلى لغة أجنبية جراء ترجمة رواية "عقرب في المحراب" للأديب والمفكر الأوزبكي عبد الله قادري.

فتيل الاستعمار وتقسيم أسيا الوسطى

سلك المستعمر منذ القدم إلى تفتيت وتفريق المجتمعات المغلوبة ليسود عليها ويحكمها، لكيلا تقوم للمستعمَر قائمة تمكنه من المقاومة والمطالبة بحقوقه.

كانت بلاد آسيا الوسطى المعروفة في كتب التاريخ العربية ببلاد ما وراء النهر، مقسمة إلى ثلاث خانات أو إمارات قبل أن يغزوها الروس القياصرة:

فمناطق وادي فرغانة وطشقند وأجزاء من طاجيكستان الحالية وقيرغيزستان وكازاخستان كانت تابعة لأمارة قوقند.

بينما كانت أمارة بخارى تحكم المناطق الوسطى في أوزبكستان ومناطق غرب طاجيكستان.

أما أمارة خيوه أو خوارزم فكانت تحكم مناطق غرب وشمال أوزبكستان وجميع مساحات تركمنستان الحالية.

لم تكن المسميات القومية المتعارف عليها اليوم مثل الأوزبك والكازاخ والطاجيك والتركمان والقيرغيز منتشرة ومستعملة، لكن المستعمر عمل على تفريق هذه المجتمعات وضرب أسفين بينهم، وكان الأوزبك هم المستهدفون بالدرجة الأولى، فجميع تلك الإمارات كان حكامها الفعليون من الأوزبك، أما المكاتبات والإدارة فكانت بيد الطاجيك.

لم يكن التقسيم الإداري لآسيا الوسطى من ضمن اهتمامات الروس القياصرة الذين غزوا هذه المناطق في أوقات مبكرة من سبعينات القرن التاسع عشر، لكنها مارست سياسة التهميش لمسلمي تركستان مما أدى إلى ظهور أفكار إصلاحية في أوساط مفكريها تمثلت بادئ الأمر في إصلاح المدارس القديمة والتي كانت قائمة على مبادئ معارفية دينية بسيطة تتركز على الحفظ والترديد، ولا تتجاوب مع مقتضيات العصر، فقد كان الكثير من رجال الدين يرون خطرا إدخال علوم الحساب والجغرافيا والفلك وتعلم اللغات الأجنبية، لذا كانت تلقى جهود رجال التجديد والنهضة سدود منيعة من المستعمر الذي كان يرى من صالحه بقاء مجتمع مسلمي تركستان جاهلا ومتقوقعا حول ذاته، كما عمل على تأييد موقف رجال الدين من الإصلاح.

قامت في روسيا ثورة ضد حكم القياصرة بقيادة لينين في فبراير1917 مستفيدا من وضعها المنهار جراء تدهور أوضاع العمال والفلاحين الروس، ولقت دعواته لمحاربة البرجوازية وتطبيق العدالة الإجتماعية صدى واسعا لدى مثقفي ومفكري تركستان الذين تأملوا خيرا وفرصة للتخلص من الإستعمار الروسي القيصري والإستقلال وإنشاء كيان واحد، لقد كان لينين يخاطب شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والتتار بوعوده لإعطائهم حقوقهم الدينية والقومية التي حرمها القياصرة، وتمكينهم من النهوض والتعليم مساواة بشعب روسيا، حيث يقول: "أيها المسلمون في روسيا وسيبيريا وتركستان والقوقاز، يا أيها الذين هدم القياصرة مساجدكم وعبث الطغاة بمعتقداتكم وعاداتكم، اعلموا أن معتقداتكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية أصبحت اليوم حرة مقدسة، واعلموا أن الثورة العظيمة ومجالس النواب والعمال والجنود والفلاحيين تحمي حقوقكم وحقوق جميع شعوب روسيا".

على أن ذلك لم يتحقق ولم يكن فقد قام الشيوعيون بخلاف ما ادّعوه، فقضوا على حكومة "مختارية تركستان" التي أنشأها التركستانيون في قوقند في 28 نوفمبر1917 بعد انهيار حكم

القياصرة، وانتهت الحكومة في 22 فبراير 1918 بعد هجوم وحشي على "قوقند"، وكانت جثث الرجال والنساء والأطفال مترامية في شوارع المدينة.

ومع كل تلك الفضائع كان بعض الشيوعيين المحليين مخدوعين بشعارات السوفييت ودعاويهم الإشتراكية، وعمل هؤلاء بإيعاز من موسكو على إحياء الفوارق القومية، وأدى ذلك إلى الشوفينية العرقية واللغوية، وبالتالي تنامت الدعوات إلى منح كل قومية وطنا مستقلا تحت راية السوفييت، حتى تم ما يسمى بالتقسيم الإداري لآسيا الوسطى عام 1924 حسب القوميات الذي كان في ظاهره منح الشعوب إدراكا وانتماءا جغرافيا، ولكن في باطنه كان تفتيت تركستان إلى دول، وإذكاء روح العنصرية بين مسلمي هذه البلاد، ولم يكتف الشيوعيون والقوميون بذلك، بل رُسمت الحدود لتكون في المستقبل مصدر صراعات عرقية مقلقة، ولازالت تعاني هذه الجمهوريات المستقلة من ويلات ذلك التقسيم الماكر.

في الرابع من يونيو عام1990 وقبيل انهيار الإتحاد السوفييتي، نشب صراع بين الأوزبك والقيرغيز في قيرغيزستان السوفيتية حول أراض في مزرعة جماعية حول مدينة "أوش" ذات الأغلبية الأوزبكية، تطور الخلاف إلى إطلاق نار وإحراق حافلات، ومن ثم انتقل إلى مدينة أوش وقاره سو وأوزكند الأوزبكية، وتم فيها حرق البيوت والاعتداء بالأسلحة البيضاء، وكانت نتيجة هذا الصراع مقتل 1200 شخص، وبيانات أخرى تدعي مقتل 10 الآف شخص، ومشاركة 30 الف شخص في هذا الصراع القومي بعد أن وصلت تعزيزات شعبية من الأوزبك من مناطق أنديجان ونمنكان، والكثير من الروايات لا تستبعد دور جهاز "الكي جي بي" السوفيتي في اندلاع هذا الصراع.

في شهر يونيو عام 2010 اندلع صراع آخر دموي بين المجموعتين في نفس المدينة التي تعتبر ثاني أكبر مدن قيرغيزستان، ولم يكن الصراع عرقيا في أصله، بل صراع داخلي بين مؤيدي الرئيس المخلوع كرمانبيك باكييف وأنصار الحكومة المؤقتة، وتحول في العاشر من يونيو إلى صراع مسلح في أوش وجلال آباد، واستمر هذا الصراع خمسة أيام أخرى مخلفة حصيلة 800 قتيل، بينما أعلنت وسائل إعلام مستقلة عن مقتل أكثر من 2000 شخص، كما نزح حوالي 110 آلاف من العرقية الأوزبكية إلى أوزبكستان.

لقد كانت عمليات التقسيم التي قام بها المستعمر الروسي في آسيا الوسطى وكذلك الإنجليز والفرنسيون في البلاد العربية تستهدف لحمة البلاد وشعوبها، ولتكون كالشرارات الصغيرة التي قد تفجر براميل البارود في المستقبل، والحل يأتي أولا وأخيرا في فهم هذه الشعوب لطبيعتهم التاريخية الواحدة، وإدراكهم لمطامع الاستعمار، والوعي بمسيرة التاريخ.

المجددون في تركستان – منور قاري عبد الرشيد

ظهرت حركة الجدد أو الجديديون Jadidlar في تركستان في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، واتخذت بادئ ذي بدء من إصلاح التعليم وإدخال المعارف الجديدة ونشر الصحف باللغات المحلية وترجمة الكتب الأجنبية أول أهدافها.

لم يكن ظهور هذه الفئة المثقفة اعتباطا وإنما بسبب حالة الإنهيار والتردي الشامل في كافة الأصعدة، ولم تكن حركتهم الإصلاحية ذات توجهات علمانية أو منفتحة إلى درجة الإصطدام بالدين الإسلامي أو بالسلطات الحاكمة، بل كان جل هدفها محاربة الجمود الفكري، وإيقاظ المسلمين من غفوتهم، وإيقاد فكرة الحرية والمعرفة والشعور بحس الإستقلال الوطني عبر إصلاحات جذرية للتعليم.

إلا أن هذه المجموعة من رجال الفكر والنهضة في تركستان قوبلت بالرفض من بعض رجال الدين المتخوفين من كل جديد، ومن قبل السلطات الروسية القيصرية التي كانت مستفيدة من بقاء المسلمين في حالة من الجهل والتخلف المشوب بانتشار الدروشة والخرافة، وعندما قامت الثورة البلشفية في روسيا بقيادة لينين وزمرته من الشيوعين عام 1917 رأى المجدودون في تلك الثورة بارقة أمل ومرحلة جديدة للبناء والتمدن والتقدم، لكن الرياح سارت بما لا تشتهيه السفن، فبعد موت لينين كانت تلك البلاد على موعد مع الدماء والأشلاء بتولي الطاغية ستالين سدة الحكم سنة 1924، حيث بدأ في تطبيق مبادئ الشيوعية وقام بالقضاء على أصحاب الفكر والمعرفة في حركة أطلق عليها حركة "التطهير الكبير" والتي استمرت من الفترة 1936-1938 ووصل أعداد ضحاياها إلى مليون قتيل في أرجاء الإتحاد السوفيتي.

وكان أن دفع رجال الفكر والنهضة في تركستان أرواحهم مقابل ذلك، ومن أبرز أولئك منور قاري عبد الرشيد الذي ولد في طشقند سنة 1878 ويعتبر من أهم رواد حركة إصلاح التعليم في تركستان، والذي تأثر بشكل كبير بأفكار المفكر التتاري إسماعيل بيك غاسبرالي مع أنه لم يلتق به في حياته.

يعتبر منور قاري الملهم الفكري لحركات إستقلال تركستان، والمناضل المهم في محاربة حالة الجهل في بلاده ودفع حياته ثمنا لذلك. درس العلوم الشرعية في كتاتيب طشقند، ثم التحق بمدرسة مير عرب في بخارى، ثم عاد الى مدينته وعمل إماما في أحد مساجدها، وفي عام 1901 افتتح في بيته أول مدرسة ذات طابع حديث –إن صح التعبير- وألف كتاب "معلم أول" ثم كتاب "معلم ثاني"، وفي هذا الأخير وضع منور قاري منهجا واضحا وعمليا في تعليم الحروف العربية، حيث أدخل طريقة سهلة لتعلم الأبجدية والنطق الصحيح، ولا يزال كتابه هذا مصدرا جيدا للمبتدئ، حيث وضع تعلم الحروف ولكن ليس بالشكل المتداول الترتيبي، فأول حرف هو الألف مع الحركات الثلاث من ضمة وفتحة وكسرة دون التوسع في ذكر التنوين والتشديد، ثم حرف الراء، ثم يدخل الحرفين الألف والراء في كلمات متعددة بحركة مختلفة، ثم حرف الزاي وهكذا حتى يستطيع الطالب في آخر الدرس كتابة وقراءة كلمات بسيطة مكونة من الحروف الثلاثة، ككلمة أرْزُ و إرزُ و أرَزَ.

في هذا الإطار يكتب منور قاري عن حالة الجهل والتخلف الذي كان منتشرا وقتها في تركستان في مقالة مهمة بجريدة "ترقي" بتاريخ 14 يونيو 1906 قائلا:

"لا يخلو مجتمعنا من الأباء ممن يضيعون سنوات أعمار أبنائهم سدى، إنهم لا يدركون لماذا هم موجودون في هذه الحياة وماهو الهدف من وجودهم! إنهم يجعلون فلذة أكبادهم حطبا لنار الجهل والتخلف، يحرمونهم ويمنعونهم من التعلم في المدارس حتى يصبحوا مثلهم خدما وعمالا لدى الروس، وحتى إن أرسله يخرجه بعد أن يتعلم الفرق بين المعاملة بالنقد وبالدين، وبعد أن يحفظ هذا الولد المسكين مالا ينفعه ولا ينفع مجتمعه من الكتب والأدبيات العسيرة، فينهمك في كتب فضولي ونوائي وحافظ شيرازي وعبدالقادر بيدل حتى يهدر عمره في تعلم حروف الهجاء وبعض الأشعار والقصائد، ويقولون بأن أبا حنيفة تعلمها، ويالأسف فإن بعض الجهلاء يحذرون من تعلم الكتب والعلوم الأخرى، فأي جهل هذا؟ هل كان الإمام الأعظم أبو حنيفة قرأ كتب فضولي وحافظ؟ أم أن كتب نوائي كانت موجودة حينها؟ وإن هذا لهو محض افتراء وكذب على الإمام الأعظم، والبعض يدعي أنه بدون هذه الكتب لن يرتقي الطالب علما وهذا أيضا مجرد إدعاء دون دليل. لقد بلغت الأمية عندنا في تركستان عددا مهولا ففي الولايات نجدها قد وصلت إلى التسعين في المئة ممن لا يعرفون مجرد القراءة والكتابة! إن الإعتكاف على قراءة تلك الكتب لا يعطي أي نتيجة، حيث يتخرج الطالب من الكتاتيب وبعد أن يمضي فيها أربعة إلى خمس سنوات نجده لا يدرك ولا يفهم تلك الكتب إلا القلة منهم والذين لا يتجاوز عددهم العشرة من بين خمسين طالبا! بعكس المدارس الحديثة حيث يكون الطالب وخلال سنتين مدركا للكثير من العلوم. ولا ننسى حالات الوفاة لطلبة مساكين بسبب تعرضهم للضرب بالعصي وأحيانا على روؤسهم من قبل بعض المعلمين الجهلة! والمؤسف أن ولي أمر الطالب لا يكترث بما يتعمله ولده، ولا يهتم لضياع سنوات عمر ابنه،

بل إن أقصى ما يهمه أن يحرك ابنه رأسه في الحفظ والترديد فقط! مالذي يستفيده المجتمع من هؤلاء؟"

أخيرا، قبض على منور قاري عبد الرشيد عام 1929 ونفي إلى موسكو وهناك تمت محاكمته بتهمة العداوة للشعب ومناهضة السوفييت، وأعدم رحمه الله رميا بالرصاص في سنة 1931 ولا يزال قبره في ضاحية من ضواحي موسكو، وكان إعدامه بداية لسلسلة من الإعدامات والقمع طالت كبار رجال هذه الحركة وخصوصا في خريف 1938.

مات يرحمه الله وقد كتب عددا من المؤلفات ومن ذلك: أديب أول 1907، وأديب ثاني 1907، وأصول الحساب 1911، وتجويد 1911، وحوائج دينية 1912، وتاريخ الأنبياء 1912، وتاريخ إسلامية 1912، وسطح الأرض 1916-1917

Figure 8.2 Cover on Munawwar Qari's Reformist schoolbook *Second Teacher* (1911, 2d ed.).

بدايات الغزو السوفيتي لأفغانستان

في مسقط رأسي "قندوز" الواقعة في الشمال الأفغاني، كانت رياح ديسمبر عام 1979 تزداد ضراوة وشدة، كنت أذهب أحيانا بصحبة والدي إلى محلنا التجاري الواقع حول دوار المدينة الرئيسي حيث تتوزع المحال التجارية، وخلفها يقع سوق الخضروات واللحوم. وفي زحمة المتسوقين والمارين كان بعض الباعة يقفون في طرف الرصيف يبيعون صور الرئيس "حفيظ الله أمين" وبمقاسات مختلفة، بالأبيض والأسود، وحول الدوار كنت أشاهد سيارات الجيب العسكرية وداخلها جنود أفغان بأسلحتهم، البعض يتحدث مع رفيقه، والآخر يعاين سلاحه الآلي الروسي "الكلاشينكوف"، بينما ملامح الناس تنبئ بحدوث أمرا ما سيقع قريبًا.

في المساء وبعد أن تناولنا طعام العشاء صعدت إلى الدور الثاني، حيث غرفة خاصة لوالدي يستقبل فيها الضيوف، وفي جدرانها مكتبة ضخمة من الكتب العربية والفارسية، وخاصة التاريخية، ولم أكن أهتم بها لصغر سني، إلا أن بعض صور الأغلفة كانت تجذب اهتمامي.

رأيت والدي جالس عند النافذة يحمل مذياعه الصغير البني اللون، يستمع إلى المحطات الإذاعية والتي كانت معظمها مشوشة وغير واضحة، يحاول أن يلتقط أصفى موجة، كنت أنظر إليه وهو يستمع مشدوداً وكأنه قد انفصل عن الواقع، فجأة صمت ثم نظر إليَّ وقال: لقد بدأ الغزو السوفييتي لبلدنا!

لم أستوعب وقتها ما يقول، بعدها أقفل المذياع فجأة، ثم بدأنا نسمع صوت الطلقات النارية تأتي من كل صوب وحدب، كان بعض أزيز الطلقات حاداً، تشعر وكأنه قريب منك، فسألته بصوت خافت: ما هذا الصوت؟ أجاب والدي وهو ينظر عبر النافذة: "إنه صوت طلقات مسدس" ثم سمعت صوتا متواصلا من الطلقات، يختلف عن الأول فهو ليس بتلك الحدة، فقال والدي: "هذا صوت رشاش آلي".

بعد قليل بدأت أصوات هدير طائرات تأتي من بعيد، ثم لحظات تشعر أنها تمر فوق رأسك، هدير طويل لا ينقطع، أسمعها تأتي من بعيد ثم تمر فوق رؤوسنا، وما تلبث أن تختفي حتى تأتي موجات أخرى من الأسراب السوفييتية. تسمرت مكاني وأنا أسمع من بعيد صوت مدافع أرضية تحاول إسقاطها في تلك الليلة السوداء الملبدة بالغيوم، نظرت عبر النافذة فرأيت مشهدا من الأضواء النارية تتجه نحو السماء، تتمايل أحيانا وتستقيم حينا آخر، كأنها موجات تتراقص، مشهد كان يبدو لي جميلاً، بينما والدي يأمرني بألا أرفع رأسي كثيرا، استمرت أصوات الطائرات وأصوات المضادات الأرضية، تتخللها أصوات إطلاق الرشاشات تأتي من الأحياء المجاورة، أو هكذا كما بدا لي.

في الغد ذهبت مع والدي إلى محلنا التجاري الواقع في وسط قندوز، كان المشهد مختلفًا عما كان قبل أسبوع تقريبًا، لم يعد ذلك البائع يبيع صور الرئيس "حفيظ الله أمين"، بل أراه يصيح على المارة، يحثهم على الشراء وقد بدلها بصور شخص آخر، يبدو عليه الصرامة والقوة، لقد كانت صور الرئيس الجديد "بابراك كارمل".

خف ذلك الزحام المعتاد كثيرا، ورأيت أصحاب المحال التجارية يصبغون أبواب محالهم باللون الأحمر القاني، لون الشيوعية المفضل. لم أعد أرى الجنود الأفغان في سياراتهم العسكرية، بل أصبحت أشاهد دبابات وناقلات جند سوفيتية، وفي مقصوراتها جنود بهيئات وسحنات تختلف عن سحنتنا.

أوصد والدي باب محله بعد أن أخذ غرضا ما، وأمسك بيدي عائدان نحو البيت، بينما كانت الموسيقى العسكرية والأناشيد الحماسية تنطلق من المذياع الكبير من طرف السوق.

في تلك الأثناء لم أعد أذهب إلى المدرسة، ولم تعد أمي تسمح لي بالخروج إلى الشارع، لكنها في يوم من الأيام أرسلتني إلى خباز كان من قومية الهزارة، يقع مخبزه على ناصية شارعنا لأشتري بعض الخبز الأفغاني، ذو الرائحة اللذيذة؛ خرجت من البيت وعندما وصلت عند الخباز ابتسم وقال: كم أعطت أمك اليوم؟ هيا أرني، ناولته ما بيدي من نقود، فأخذ قطعتين من الخبز ووضعها في الزنبيل القماشي الذي كان معي، ثم قفلت من عنده أريد العودة إلى بيتنا، لكني سمعت أصوات جلبة تأتي من الخلف، فنظرت وإذا برجال يقفون عند النهر الصغير الذي يعبر حيَّنا، وآخرون يرتدون ملابس عسكرية يتحدثون فيما بينهم، ويبدو عليهم الانفعال والاضطراب، فاقتربت لأرى ما يحدث، فرأيت أحد الجنود وقد نزل إلى النهر، يبحث عن شيئ، وفجأة قال أحد الواقفين على الجسر: ها هي تمر بجانبك، أمسكها؛ كنت خلف أولئك الجموع لا أدري ما يدور، وبعد قليل خرج الجندي حاملا في يده رأسا مقطوعة! نعم رأس آدمي!

أصابني الهلع والخوف من ذلك المنظر، وركضت مسرعًا نحو البيت، وهناك رويت لوالدتي وملامح الخوف والهلع باديتان في وجهي، لا أذكر ماذا قالت، إلا أن الدهشة كانت على ملامحها واضحة. في المساء سمعت من والدي أن مزارعا قتل أحد الجنود الروس في بستان على أطراف قندوز وألقى بجثته في النهر!

بعدها أصبحت الأمور تجري نحو الأسوء، يقول والدي: إنه وبسبب الانفجارات ودوي صوت الطلقات، لم تعد بقرتنا الوحيدة تدر حليبًا!، أما عني، فلم أعد أرى أصدقائي يركضون في شارعنا، ولم أعد أخرج إلى محل العم عبدالغفار لشراء الحلوى، ولم أعد أشاهد ماشية الأهالي وهي تعود من الأرياف قبيل مغرب كل يوم، لقد اختفى صوت ذلك الراعي الذي كنت أراه وهو يصيح وسط الأغبرة، وسط جلجلة الأجراس المعلقة على رقاب البقر، يصيح عليها لتتوجه لمنازلها، صورة جميلة بقيت في المخيلة الغضة، قبل أن تبدأ حوادث الزمن القاسية تمحي اللحظات الجميلة من ذكرانا، وكأن الإنسان خلق ليشقى!

العودة لأوزبكستان

البحث عن العدالة في التشايخانة

في خريف عام 1993 كانت زيارتي الأولى إلى أرض الأباء والأجداد أوزبكستان، لقد كانت رحلة الساعات الخمس بالطائرة من جدة إلى طشقند نقطة فاصلة وتحول كبير بين واقعين وبين مجتمعين كانا في انقطاع وبعد جغرافي وثقافي كبير، كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ليلا، نزلنا من السلم وكان الهواء باردًا عكس رطوبة جدة، وأول ما أثار انتباهي عند نزولنا مدرج الطائرة، نظرات رجال الأمن بملامحهم الروسية وهم يحملون أسلحة رشاشة، وكانوا يرمقوننا بنظرات فيها الكثير من الجدية، توجهنا بعدها نحو حافلة سوفيتية قديمة، حيث أقلتنا إلى مبنى الوصول، ولا أنسى رائحة المازوت القوية المنبعثة منها.

لم يكن عددنا يقارب المئة مسافر، وسارت الحافلة بنا حتى وقفت أمام مبنى مظلم مكون من دورين، نزلنا أنا ووالدي ووالدتي وسرنا نحو باب نصفه مفتوح فقط. وقف المسافرون يحاولون الولوج عبره بعنوة، الكل يحاول الدخول قبل الآخر، وكأن جائزة تنتظر من يسبق الجميع. بعدها خف ضجيج الداخلين، وجاء دورنا فدخلنا ممرًا طويلاً، ضعيف الإنارة، كان في مقدمته كشك الجوازات، وكان القادمون متجمهرون أمامه، كانت بعض مصابيح الممر تومض وتنطفئ مرة أخرى، وكأنها تذكرني بمشاهد الأفلام، حيث الممرات الباردة المظلمة الرطبة، وكان في أول الممر دورات مياه، تنطلق منها أصوات المياه المندفعة بشدة، في هذه الأثناء وقف بعض المسافرين بين جانبي الدهليز الطويل يدخنون بشراهة بعد هذه الرحلة الطويلة.

جاء دورنا عند كشك الجوازات، أخذ الضابط الشاب جوازتنا وبدأ يُحملق في الصورة، ومن ثم في وجوهنا والجدية ظاهرة في ملامحه مع غياب تام لأي لطافة أو إبتسامة، استمر الضابط يُطيل النظر في الصورة تارة، والتوسم فينا تارة أخرى، كأنه يحاول إيجاد ثغرة تزوير، أو يمارس حيلة نفسية أمنية للتأثير على الأجنبي الزائر، شعرت حينها بأن النظرة البوليسية الشيوعية لا زالت تتنفس، مع أنه قيل لنا أنها دفنت قبل عامين تقريباً.

كانت أواخر الثمانينات 1989-1991 مرحلة مفصلية في تاريخ الإتحاد السوفييتي، حيث لفظت وبعد سبعين عامًا أنفاسها الأخيرة، في وقت كان رئيسها ميخائيل جورباتشوف يعتقد بأنه يحمي البلد من الإنهيار بفكرة إعادة البناء أو "البروسترويكا" كما أطلق عليها، لقد ذهبت تطلعاته هباء وانهال ذلك البناء الشيوعي الضخم، مدمرًا معه السور الحديدي المشهور، انهار عدو الغرب الرأسمالي الأكبر دون أن يطلق طلقة واحدة، أو كما كان يتهكم السياسي الروسي القومي "جيرونوفيسكي" بأن الغرب هزم الإتحاد السوفييتي بأصابع شكولاتة "مارس" و"اسنيكرز".

بعد عبورنا الجوازات جاء دورنا عند مفتش الجمارك، حيث كان على القادم تسجيل ما معه من العملات الصعبة والذهب والمجوهرات، كان أبي قد ملأ بطاقتين وكتب ما معه من دولارات، قام الموظف بختم الورقتين واحتفظ بواحدة وسلم الأخرى لوالدي. كان على الزائر والسائح إبراز الورقة عند خروجه من البلاد، حتى لا يخرج معه من المال أكثر مما أحضره.

خرجنا بعدها إلى الساحة الخارجية للمطار، رأيت سائقي التكسي ينتظرون في الجو البارد، ومعظمهم يخرج البخار من فمه جراء برودة الأجواء، شدني هذا المنظر، فلم أعتد عليه في البلد الذي قدمت منه وقضيت فيه بعض شبابي، وشدني أكثر تجمهرهم وهم ويرتدون معاطف شتوية وقبعات سوفيتية داكنة اللون.

كان في المطار من الأقرباء من هم في انتظارنا، فركبنا سيارة من نوع فولغا 76 وكانت وقتها سيدة السيارات السوفيتية، وهي عبارة عن خزانة حديدية تتحرك بجرأة في شوارع طشقند التي بدت لي هادئة وخالية ومظلمة نوعا ما بسبب الأشجار الكثيفة التي تحجب نور أعمدة الإنارة.

خرجت في الغد مع والدي رحمه الله إلى السوق، وكانت سيارتنا روسية ماركة لادا Lada 06 قد عمها الغبار جراء وقوفها في المرآب العام لأكثر من ستة أشهر، أعدنا توصيل أطراف بطاريتها فأشتغلت صادرة صوتا ورائحة وقود لم أعتد على سماعها أو شمها في السعودية.

عندما وصلنا الى بوابة السوق نزل والدي من السيارة وأمرني بالجلوس بها كي أحرسها مع أنه نزع مفتاحها، حيث كان منتشرا في الفترة السوفيتية سرقة السيارات، ويتم ذلك بسرعة فائقة وفي وضح النهار، كما كان اللجوء إلى الشرطة مضيعة للوقت وقتها، استغربت قليلًا ولكني كنت على دراية وعلم بطبيعة الوضع الأمني في حينه وغياب القانون، على أني لم أكن أعلم بأن تنفيذ القانون في وقته لا يتم في قاعات المحكمة بل في المقاهي أو التشايخانات (الجايخانات)!

الشعب الأوزبكي إجتماعي جدًا، ولديهم عادات جميلة، ومنها ما كان ملفتاً للنظر، مثل اجتماع الأصحاب والمعارف أو زملاء العمل وزملاء الدراسة كل فترة من الشهر في الجايخانة أي (بيت الشاي) أو المقهى كما تسمى في البلاد العربية، إلا أنها تختلف عن تلك العربية، فهي ليست مكانًا لمجرد شرب الشاي أو القهوة، بل مكان ليتفنن كل شخص في طبخ الرز لأقرانه وأصحابه، حيث يجتمع ما بين العشرة أو ما يزيد قليلًا في الجايخانة جالبين معهم اللحم والرز والجزر الذي يعتبر مهمًا في إعداد الرز الأوزبكي

(البخاري بحسب شهرته في السعودية) وكذلك الحلويات والبعض يجلب معه مشروبه الروحي الخاص، على أن هذه الظاهرة قد خفتت كثيرًا في يومنا الحاضر.

يجلس الحاضرون في غرف خاصة وعادة تكون مفروشة بمفارش Kurpachaالمحشوة بالقطن الطبيعي، وفي وسط الغرفة توجد طاولة لا يزيد ارتفاعها عن الأربعين سم، ثم يأتي طباخ الجايخانه ويأخذ الحاجيات ويسأل عن الموعد المناسب ليجهزالطعام، بينما هم يشرعون في تبادل الأحاديث والأخبار والنكات.

هذه هي الصورة النمطية لبيوت الشاي الآن، ولكن في سنوات ما قبل إنهيار الإتحاد السوفيتيي كانت الصورة مختلفة، حيث لم تكن الجايخانة لتناول الرز وتبادل الحديث وحسب، بل كانت محاكم شعبية يديرها بعض زعماء المافيا، وكما ذكرت فقد كان اللجوء إلى الشرطة مضيعة للوقت وقتها، إذ كان زعيم المافيا المحلية هو من يسترد لك سيارتك المسروقة.

في البداية كان زعيم المنطقة من المافيا يسأل عن نوع السيارة وموديلها، فإن كانت موجودة في منطقته ومسروقة من قبل أفراد عصابته، طلب نصف سعرها أو ربعها حتى تعود سالمة دون خدوش أو تكسير لصاحبها، وإن لم يكن رجاله من سرقوها فيعتذر بأدب جم وينصح أن يستفسر عنها عند فلان من الناس.

ذلك كانت هذه المقاهي مسرحًا لحل المشاكل المالية، حيث يلجأ إليها من أدان أحدهم مبلغًا من المال ولم يستطع استرجاعه، فقد كان الزعيم بداية – ولكل منطقة زعيمها وكثيرًا ما كانت الصراعات تنشب بينهم - يستمع للشكوى والمبلغ المستدان، ثم يعرض عليه خدماته مع أخذ جزء من المال، ولا يمر أسبوعا أو عدة أيام حتى يكون ذلك المرواغ والمماطل ماثلًا أمام الزعيم في الجايخانة، وبعد أن يقر بما أخذه، يمهله الزعيم عدة أيام ليرد المال، بعد أن يشهد عليه الشهود، وهم من أفراد عصابته، والويل طبعًا لمن يحاول المرواغة أو المماطلة.

لقد كان خطر هؤلاء في ازدياد ولم يعد الشعب يثق في القانون ورجال الأمن، حتى وصلت حالات سرقة السيارات إلى مستويات عالية، وأصبحت المرآبات لا تتسع للسيارات المسروقة، وكان من الجنون أن تركن سيارتك في الليل عند بيتك، بل وصلت الأمور إلى سرقة الوقود من خزان السيارة، وأذكر أن والدي أمرني يومًا أن أعبئ السيارة بالبنزين الذي كان شحيحًا ونادرًا، حيث كان الناس يقفون في طوابير تمتد إلى كيلومترات عند محطات الوقود، وقبل أن أستقل السيارة، فتح أبي باب البنزين وأراني الغطاء، وإذا به ذو أرقام وكأنه مقبض خزانة المال الحديدية، وأمرني بحفظ الرقم السري والذي كان مكونا من ثلاثة أرقام.

استمر ذلك الإنفلات الأمني حتى نهاية 1994، بعدها أحكم الرئيس إسلام كريموف قبضته الحديدية، حتى اختفت تلك الفوضى، وزال معها رجال الجايخانات، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

عادات لم أعهدها

التملص من المشروب

كانت شقتنا في وسط طشقند في حي كان معظم سكانه من الروس والتتار والكوريين وبعض اليهود والأوزبك المتمدنين من ذوي الدراسات العليا، بُني هذا الحي في بدايات السبعينات بعد زلزال 1966 بمبان تتكون من 4 طوابق مبنية من الطابوق فكانت تحمي سكانها من حر الصيف وصقيع الشتاء وبشوارع نظيفة واسعة، وهو ما لفت نظري في المدينة، وفي أطرافها أشجار البلوط العالية التي تصل ارتفاع بعضها إلى الأدوار العليا، حتى أن أصحاب الدور الأرضي كانوا لا يشعرون بحرارة الصيف بسبب كثافة تلك الأشجار.

لم أكن أجيد الروسية وقتها وبدت لي لغة صعبة وسريعة جدا، إلا أن هذا الحي ومعظم الأجزاء الأوروبية من طشقند كان يجبرك على تعلمها، وإلا كنت ستعاني الأمرين حتى في صالون الحلاقة، لقد كانت طشقند وقتها تبدو كمدينة من مدن أوروبا الشرقية، بعكس الأجزاء القديمة "ايسكي شهر" حيث تسمع الجميع يتحدث الأوزبكية بلهجة طشقندية قحة.

في مساء ذلك اليوم من نوفمبر جاءت إحدى جاراتنا ودعتنا لحفل زفاف ابنتها، كان والدي قد أحضر معه جهاز تسجيل فيديو، وكان وقتها يعتبر من المقتنيات الثمينة والملفتة للأنظار. ذهبت مع والدتي والتي من ملامحها لا تختلف البتة عن السكان المحليين، عدا طريقة لبسها للحجاب وغطاء الرأس الذي كان ملفتا للأنظار، وكذلك طريقة تحدثها واستخدامها للمصطلحات العربية، والتي كانت غير مفهومة عندهم.

كانت حفلات الزفاف تقام في الشارع بين البيوت، فلا وجود وقتها لقاعات الزفاف الفاخرة كما هي في يومنا الحاضر، وكان جميع سكان الحي يتعاونون في مساعدة صاحب الحفل، فهذا يجلب الكراسي وذاك يتكفل بالطاولات، والشباب يجتمعون منذ الصباح لتقطيع الجزر، وآخرون يمددون أسلاك الكهرباء والإضاءة.

كان الحفل صاخبًا والناس يجلسون على الطاولات الممتدة المزينة بشتى أنواع الأطعمة والمشروبات، فالأوزبك كباقي الشعوب العربية والشرقية يتباهون في حفلاتهم، كيف لا وهي تقام مرة واحدة في العمر كما يقولون، وكلما كان عدد الحضور كبيرًا، كان ذلك مدعاة للفخر والتباهي، بعكس حفلات الروس والأوربيين الذين كان لا يتعدى عدد الحاضرين العشرين أو الثلاثين شخصًا، إلا أن المتفق عليه بين هذين المجتمعين في مناسبات الزواج، انتشار قنينات المشروبات الكحولية.

رأيت العروسين يجلسان في صدر الشارع، وخلفهما حاجز وقد غطي بسجادة حمراء زاهية اللون، مع دائرتين تجهز عادة من القطن وفي وسطها عبارة "بختلي بولين" ومعناها "نتمنى لكما السعادة"، جلست في إحدى الطاولات ولم أكن ملفتًا للنظر، فالملامح هي نفس ملامحهم، اقترب أب العروس وعرفني بالجالسين، ووقتها بدأت في لفت نظرهم. كان معظم الحاضرين قد أصبح ثملًا والحمرة تعلو وجوههم، والضحكات أسمعها من الجالسين خلفي ومن أمامي.

كنت في صغري أسمع أن المشروب يكون مفعوله شديدًا ويفقد الشارب عقله ويبدأ في الإعتداء، ولكن حالات هؤلاء لم تكن توحي بذلك، بل كانوا في نشوة وضحك، التفت إلي الجالس جنبي وقال: "أنت ضيف عزيز علينا ونحن شعب نحب إكرام الضيوف"، وهم كذلك بالفعل، ثم أخذ القنينة وفتح غطائها وصب لي بعض الفودكا الروسية، وقال منتشيا: "هيا لنشرب نخب التعارف.. لنشرب حتى ينعم الزوجان بالسعادة "، نظرت إليه واعتذرت بلطف بأني لا أشرب الكحول، وقتها اتسعت نظراته متعجبًا وقال: "كيف لا تشرب؟ هذه إهانة لي أيها الضيف الكريم!" لم أعرف كيف وبم أرد عليه، وعلمت أني قد وقعت في ورطة مع هؤلاء المنتشين، كان معظم الحاضرين قد شربوا وبدأ مفعول الشراب عليهم! على أن هذه الظاهرة انتهت تقريبا الآن ماعدا بعض حفلات المتأثرين بالثقافة الروسية.

وبينما أنا أحاول جاهدًا رد هذا اللطف والكرم من هذا النبيل الكريم، انتبه صاحب العرس وكان يعرف أننا قد أتينا من بيئة مختلفة، فتدخل وقال له بلطف: "إنه لا يستطيع الشرب يا رجل! إنه مصاب بقرحة في المعدة!" نظر إلي الرجل النبيل الكريم وقال: "آه.. حسنًا في هذه الحالة لا أستطيع إرغامك يا صديقي، ولكني سعيد بالتعرف عليك!". ابتسمت له وشكرت دعوته بينما كان هو يتنرح يمنة ويسرى، فعلمت أنه لن يضايقني بعد الآن، ثم أخذت في الإستمتاع بمشاهدة فقرات الغناء ورقص الحضور وتنقيط الأموال النقدية، فرحا بالطريقة التي سأتملص بها من دعوات الشراب الملحة لاحقا!

الهوية الثقافية الأوزبكية

استقلت أوزبكستان عن الإتحاد السوفيتيي في نهاية اغسطس عام 1991، وأصبحت تحتفل بعيد استقلالها في الأول من سبتمبر من كل عام، وأعيدت العديد من القيم الدينية والقومية والثقافية إلى الشعب، كالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى واعتبارهما مناسبة رسمية وعطلة تمتد خمسة أيام، وكذلك عيد النوروز الموافق للحادي والعشرين من شهر مارس، وهو عيد الربيع والزراعة عند معظم الشعوب الشرقية.

كانت أوزبكستان ومعظم الدول الإسلامية السوفيتية تستخدم الحروف الكيرلية أو السيرلية الروسية، بعد الغاء الحروف العربية عام 1929 واستبدالها بالحروف اللاتينية، واستمر هذا الحال حتى تم استبدالها بالحروف الكيرلية الروسية عام 1940 ليستمر هذا الحال حتى استقلال البلاد عام 1991.

في 21 أكتوبر 1989 ومع رياح التغير الجورباتشيفية، أعلنت أوزبكستان السوفيتية اللغة الأوزبكية لغة رسمية للدولة، حذوها حذو الجمهوريات السوفيتية الأخرى. وفي 2 سبتمبر 1993 أعلنت أوزبكستان العودة وبالتدريج إلى الحروف اللاتينية، واستمر هذا التدرج لأكثر من ثلاثين عامًا، وهي مرحلة طويلة، ولعل وجود طبقة سوفيتية في الدوائر ومراكز القرار هو السبب الرئيس لهذه المماطلة، بحكم أن هذه الطبقة تتحدث اللغة الروسية وتفضل المكاتبات عبرها، لاسيما وأنها أغنى وأثرى في المصطلحات العلمية وخاصة السياسية والدبلوماسية والطبية والمصطلحات المخصصة في الهندسة من مثيلتها الأوزبكية. كان المستعمر يربي جيلًا متعلمًا يجيد لغته تحدثًا وكتابة، والمستعمر الروسي لا يختلف عن نظرائه الأوربيين ممن تركوا في البلاد المستقلة طبقة موالية لهم فكريًا على أقل تقدير.

كان الرئيس إسلام كريموف والذي استمر حكمه لأكثر من 27 عامًا، معروفا بالشخصية المعاندة، وفي وقت كانت روسيا تشهد ظهورا للأحزاب اليمينية القومية المتطرفة، كأتباع السياسي المثير للجدل جيرونوفسكي، لذا كانت سياسة كريموف تقوم على تركيز التمسك بالقيم الوطنية للأوزبك والفخر بماضي أوزبكستان، وكان في نفس الوقت محاربًا شديدًا لمظاهر التدين من حجاب وإطلاق لحى.

لقد كان كريموف يريد إيجاد سياسة ثقافية جديدة تدعو إلى التمسك بالقيم والعادات الأوزبكية، مع تشدده لبعض مظاهر التدين، حيث لم يكن بالإمكان أن تعمل سيدة محجبة في دائرة حكومية، أو أن تلتحق فتاة بصفوف الجامعة وهي ترتدي الحجاب، واستمر هذا المنع حتى أعوام 2017، لذا كان الأمر ملتبسًا حينما كانت الدولة تدعو إلى العودة إلى الذات ومعرفة الشعب لتاريخه، لأن الدين وكما هو معروف يعتبر مصدرًا أساسيًا للثقافة والهوية في أوزبكستان وكذلك في طاجيكستان، الدولتان المعروفتان بزيادة أعداد المتمسكين بأهداب الشريعة، بعكس قيرغيزستان وكازاخستان، فقد كانت عملية التدين وأسلمة المجتمع فيهما بطيئ جدًا، وإن كانت

مناطق جنوب قيرغيزستان ذات الأغلبية الأوزبكية تشهد عودة قوية للدين، ولقد رأينا انعكاس ذلك في كثرة أعداد الملتحقين من هذه المناطق (أوش-جلال آباد) في مناطق الصراع في سوريا بعد عام 2011.

الشعب الأوزبكي منفتح على الثقافات الأخرى، يحب الوسطية والاعتدال، محب للحياة، وتستطيع تلمس ذلك في مناسبات زواجه، حيث تسمع أغاني يترنم عليها الأوزبك من دول أخرى، تراهم يسمعون للأغاني العربية والإيرانية والتركية والهندية.

وبما أن لكل أمر وجه إيجابي وسلبي، فإن سنوات الاتحاد السوفيتي أوجدت طبقة مثقفة، وتطور الأوزبك وكذلك شعوب هذه المنطقة علميًا وثقافيًا، وانعكس ذلك في سبل حياته، إن قارنها بشعوب كانت تعيش قبل مئة عام بجوار هذه الدول، وكانت تتشابه كثيرًا من حيث المطعم والملبس وطريقة التفكير، وأقصد هنا أفغانستان، التي لا يفصلها عن هذه الجمهوريات سوى نهر لا يزيد عرضة عن مئة متر، لكن الفارق كبير بين المنطقتين سابقا وحاضرا. على أن للشيوعية مساوئ عديدة أهمها فقدان الإحساس بقيمة الوقت، وبالتالي انعدام روح المسؤولية، وانتشار ظاهرة معاقرة الخمور، والتي خفت الآن كثيراً.

عودة الشعب الأوزبكي بهذه اللهفة إلى الدين كان سببه عامل المنع والاضطهاد خلال الحقبة السوفيتية وما بعدها، حيث كانت لأحداث الحرب الأهلية الدامية في طاجيكستان عام 1992، وكذلك تولي حركة طالبان الحكم في أفغانستان، وظهور حركات جهادية تدعو للعنف في قيرغيزستان وفي وادي فرغانة في أوزبكستان سبب في تشديد كريموف من قبضته على المتطرفين، إلا أن هذه العودة القوية ماهي إلا ارهاصات لتلك الفترات، ومع مرور الوقت ستخف حدتها وسيقل تأثيرها.

عندما تولى الرئيس الحالي شوكت مرضيايف سدة الحكم عام 2017، غير من سياسة الدولة تجاه الدين، فسمح للطالبات بارتداء الحجاب في المدارس والجامعات وسمح برفع صوت المكيروفونات في المساجد، وأصبحت زيارة البلاد المقدسة في مكة على مرمى حجر، إلا أن محاولة بعض الجهات الإسلامية المتشددة في فرض قيم وأراء غريبة عن المجتمع الأوزبكي ونشرها لدعوات فيها كراهية وعنف تجاه المخالفين، قد تجعل الحكومة تعيد النظر في إجراءاتها مع حرية التدين والاعتقاد.

الكرة اعتقد أنها في ملعب المتشددين، وليت شعري لمَ نرى وعبر التاريخ الحديث إلا اصطدام الحركات الدينية مع حكوماتها، لأنها حركات قاصرة في النظر، ويعيبها سقم فهمها للواقع وللسياسة وعدم استيعابها للدروس من الماضي.

بواكير التوجه الإسلاموي في وادي فرغانة

أراد الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف إعطاء جرعة من أكسير الحياة للهرم السوفييتي، لكنها وبدل أن تكون جرعة شفاء وحياة، كانت جرعة موت وانهيار، لأسباب عدة دون أن نغفل الدور الغربي في إسقاط ذلك المارد.

كانت فكرة إعادة البناء "برويسترويكا" قد أعادت للكثير من القوميات الحرية الدينية، ذلك الجزء المهم من وجدانها والتي حرمت منه خلال سبعون عاما، فكان أن أعادت لهم البروستريكا الدين، وهو المكون الأساسي لتشكيل شخصية الفرد والمجتمع، وكان أن استفاد مسلمو أوزبكستان من موجة الحرية الدينية والقومية كثيرًا، واستطاعوا تشكيل هويتهم الدينية الإسلامية مرة أخرى، ففتحت المساجد ودور تحفيظ القرآن الكريم، وسمح لهم الذهاب للديار السعودية لأداء الحج بسهولة، حقا لقد كانت تلك السنوات الأولى من التسعينات مثل خلية نحل نشطة في العودة إلى الهوية والمعتقد، والذي أعزوه إلى الحرمان الطويل، فكان حال المجتمع الأوزبكي كحال الضمآن الذي يرى زير الماء البارد.

كان وادي فرغانة ذو الكثافة السكانية الأعلى في المنطقة والتي تشترك ثلاث دول فيه، مركزا للحركة الدينية، متفوقا في نشاطه وحماسته الدينية على بخارى وسمرقند وطشقند العاصمة، ولا ضير في ذلك فقد كان جل المهاجرين من تركستان إلى أفغانستان والسعودية وتركيا فيما بعد هم من هذه المنطقة.

يشتهر هذا الوادي بخصوبة أراضيه، وجودة فواكهه ومكسراته، وبمدنه العريقة كأنديجان ونمنكان وخوقند ومرغلان وكاسان، ويختلف سكانه عن باقي المناطق في أوزبكستان بالتشديد في موضوع التربية والنظافة وحسن الخلق وتوقير الكبير والضيف والذي قد يكون زائدا عن حده ومؤديا إلى نوع من التكلف المرهق.

في شقتنا التي تقع في وسط طشقند كانت زيارة الباحثين والمؤرخين لمنزلنا قد أضحت عادة يومية بحكم سمعة والدي كمؤرخ وعالم، وفي عشية يوم من الأيام وكانت الأجواء قد زادت برودة مع توسط شهر نوفمبر من عام 1993 كان أحد الزوار قد أحضر معه شريط فيديو عن أحداث مبنى إدارة منطقة نمنكان في الثامن من ديسمبر لعام 1991 حيث كان الزعيم الديني طاهر يولداش وقتها قد استولى ومعه مجموعة من الشباب المندفع بعواطف الدين على مبنى إدارة المنطقة وتسمى بالأوزبكية "حاكميت" والتي يقابلها مصطلح "الأمارة " أو" قائم مقامية" في الدول العربية، ومع مساء تلك الليلة وصل عدد المحتشدين إلى أكثر من عشرين ألف، واختصرت مطالبهم بوجوب إعلان أوزبكستان جمهورية إسلامية.

كانت صيحات "الله أكبر" تسمع من الحشد الذي ملأ القاعة الرئيسية في المبنى، وكذلك في الأطراف الخارجية، ثم قام شاب يبدو في الثلاثينات من عمره ويرتدي معطفا وقبعة شتوية اشتهر بها السوفييت، وأمسك باللاقط وبدأ في التحدث

بصوت عم أرجاء المبنى الرخامي، كان ذلك الشاب هو طاهر يولداش زعيم ما يسمى بحركة "عدالت"، وكان حديثه يدور حول مطالب يقرأها من ورقة في يده اختصرها في أن يعلن رئيس أوزبكستان التي استقلت منذ أقل من شهرين، كدولة إسلامية، وأن يلغي البرلمان ويطرد الشيوعيين منه.

كان إسلام كريموف ومعه بعض رجاله يجلسون، وكانت نظرات كريموف تتراوح بين النظر إلى طاهر وبين الحضور الكثيف الذي وصل عدده إلى أكثر من عشرين ألف احتلوا مبنى الإدارة بطوابقها الأربعة، وكانت الأعلام الجديدة ذات اللون الأخضر وقد كتب في وسطها كلمة الشهادة معلقة في أدوار المبنى، وبين كل كلمة كان الحضور يهتف بصيحات "الله أكبر".

بعد تلك الخطبة الحماسية، أراد إسلام كريموف أن يلقي كلمته ومد يده ليأخذ اللاقط من يد طاهر، إلا أنه رفض وقال: "لم ننته من حديثنا ولم نعطك الإذن بعد"، ثم واصل حديثه مع الصيحات المدوية من أتباعه في ذلك اليوم البارد من شهر ديسمبر، وبعد أن انتهى من خطابه ناول إسلام كريموف اللاقط، فبدأ بادئ الأمر في الإعتذار منهم لعدم تمكنه من اللقاء بهم في زيارته السابقة لنمنكان، حيث قال:

"عند وصولي إلى نمنكان زرت المسجد الجديد وأنا متوضئ، فدخول المسجد لا يجوز إلا مع طهارة، اعلموا يا إخوان أن الكمال لله وحده فقط، وإني أعتذر منكم وأطلبكم العفو، ولم أعلم بوجود مسجدين آخرين في نمنكان، وها أنا وللمرة الثانية أطلب منكم المعذرة، وأنا مستعد لأجثو على قدمي طالبا منكم الغفران، يا إخوان لي الآن سنة ونصف في سدة الحكم، فهل أصدرت أي قرار يسئ لكم؟ إن كنت قد أصدرت فرمانًا ضد تطلعاتكم، فلتطرحوه أمامي لنتشاور حوله، إن مطالبكم بإعلان أوزبكستان جمهورية إسلامية يحتاج إلى تصويت من البرلمان، نحن نعيش في دولة متعددة الأطياف ولابد من سماع البقية أيضًا، إن جمهوريتنا تمر بظروف صعبة، فارتفاع الأسعار ومطالباتنا بدفع ديون الإتحاد السوفييتي يشكل ضغطًا هائلًا علينا، سأقوم خلال الشهر القادم برحلات إلى الدول الإسلامية الشقيقة طالبًا الدعم منهم، سأزور تركيا وباكستان وإيران، كما أننا رؤساء الجمهوريات في آسيا الوسطى اتفقنا على تشكيل حلف إسلامي بيننا".

ترك بعدها إسلام كريموف نمنكان بعد هذه الإهانة من قبل طاهر يولداش وعاد إلى طشقند. لقد كانت مطالب ذلك الحشد مختزلة، وتعكس قصر نظر الجماعات الدينية، وغياب تام لفقه الواقع في دولة منهكة اقتصاديًا وتمر بمرحلة عصيبة، في وسط بحر من القلاقل والصراعات والفوضى.

في شهر مايو من العام التالي 1992 قامت في تاجيكستان المجاورة حرب أهلية وبنفس تلك الدعاوى والأسباب، مخلفة ما يقارب المئة وخمسين ألف قتيل، وتدمير أكثر من خمسة وثلاثين ألف منزل، ولجوء أكثر من نصف مليون لاجئ تاجيكي إلى أفغانستان، والتي كانت هي الأخرى تئن من الحروب بين الفصائل الجهادية، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

لقد كانت السنوات الأولى من التسعينات عصيبة ومفترق طرق لمستقبل بلدان المنطقة، حروب أهلية وفقر وعصابات مافيا وفوضى عارمة، ولو لم تتخذ وقتها تلك الإجراءات والتي يصفها البعض بالقاسية وغير عادلة، لأصبح وادي فرغانة واديًا تجري فيه الدماء في قنوات المياه، ولكانت أشجارها المثمرة تحمل الأشلاء بدل الثمار، ولكانت آهات الأمهات تسمع بدل مقامات الشش مقام.

عربات الموت السوفيتية

انهارت قيمة العقارات بعد انهيار الاتحاد السوفييتي حتى أصبحت الأراضي والبيوت رخيصة جداً بسبب الإنهيار الاقتصادي، وهجرة الروس واليهود وغيرهم من القوميات من أوزبكستان وبيع منازلهم، وأذكر أنه في أعوام 1994-2000 كانت بعض الشقق في مناطق ريف طشقند تباع بمبلغ مئة دولار.

في أحد الأيام وأثناء عودتي مع عائلتي بعد جولة نزهة في المناطق الجبلية في ولاية طشقند، مررنا ببلدة تسمى اسكندر Iskandar وتبعد خمسين كم تقريبا عن طشقند، لاحظت كثرة البيوت بجانب الطريق وقد كتب عليها لافتات للبيع، فتوقفت لنسأل عنها كون المنطقة هادئة وبعيدة عن ضجيج العاصمة، وخلفها يمر نهر جميل.

وقفنا أمام أحد الدور وطرقنا الباب فخرجت إلينا امرأة في السبعين من عمرها تقريباً، ذات ملامح قوقازية ولهجة تتارية تركية، رحبت بنا وأدخلتنا الفناء الخارجي، كانت مساحة أرضها تراوح الستمئة متر مربع تقريباً وفي وسطها بيت لم يكتمل بناءه بعد، فسألناها عن السعر، فقالت: إنها تريد مبلغ 2500 دولار أمريكي، لكنها أردفت قائلة بأن السعر قابل للتفاوض وأنها تريد إكمال البيع بأسرع وقت والعودة إلى بلاد القرم حيث موطنها الأصلي.

إن قصة هذا الشعب حزين ومؤلم كتجاعيد وجه هذه العجوز، حيث تم تهجيرهم من وطنهم الأصلي في شبه جزيرة القرم إلى آسيا الوسطى بتهمة العمالة والتعاون مع القوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية، وهي تهمة اتضح بعد مغيب شمس السوفييت بأنها كانت كذبة ومبالغ فيها، فقد تم اتهام شعب كامل بالخيانة في أبشع صورة من صور الإضطهاد الستاليني للشعوب، بسبب تعاون فئة منهم مع بعض الثوار.

حيث وبعد أن استعاد السوفييت السيطرة على شبه جزيرة القرم من الألمان، وفي صبيحة يوم 18 مايو من عام 1944، دخلت قوات مفوضية الشعب NKVD القمعية منازل التتار عنوة وقرأت على مسامع ساكنيها المذهولين قرار ستالين بترحيلهم إلى أوزبكستان وصحاري كازاخستان، وتم منحهم نصف ساعة فقط لجمع حاجاتهم الضرورية، وفي غضون ثلاثة أيام تم ترحيل ما يقرب من 180 ألف شخص قسرا في عربات كانت مخصصة لنقل الماشية، ودون أن تتوقف في الطريق، أو يُلقى بالا لصيحات العجائز وبكاء الأطفال، حتى مات منهم ما يقرب من النصف تقريباً داخل تلك العربات، بسبب الجوع والعطش والإرهاق وانتشار الأمراض.

استقبلت أوزبكستان السوفييتية ما يقرب من المئة وخمسون ألفا منهم، ولم تكن السلطات المحلية على استعداد لقبول هذا العدد من المنهكين جسدا ونفسا، كما حرمهم النظام السوفييتي ولمدة 13 عاما من حرية التنقل لأبعد من خمس كيلومترات، وكان عليهم مراجعة قسم الأمن مرتين في الشهر لتسجيل أنفسهم.

في أواخر عهد جورباتشوف وبعد هبوب رياح التغيير على الاتحاد السوفييتي، اعترف مجلس السوفييت الأعلى بأن تهجير تتار القرم من موطنهم الأصلي كان خطأ فاحشا، وتم كشف زيف الإتهامات الموجهة ضدهم.

على كل وبعيد عن كل هذه المظالم أخذت أتجول في أطراف البيت ورأيت كيف أن العجوز زرعت شجيرات التوت البري التي تستخدمها في صنع المربى وتبيع الباقي الفائض من المحصول على قارعة الطريق، سألتها: لماذا تريدين بيع البيت وأين ستسكنين؟ فقالت إن زوجها متوفي وأن العمر قد بلغ عتيا وتريد أن يكون مرقدها الأخير في مسقط رأسها في إحدى قرى البحر الأسود. كانت العجوز تتحدث ونظرات عينيها غير متأكدة هل سيسعفها الوقت لتعود لقريتها أم لا.

اشتريت منها الأرض بالسعر الذي طلبته ولم أتفاوض معها، وبعد فترة عدت إلى القرية وعندما سألت عنها قيل بأنها عادت إلى موطنها الأصلي بعد غياب قسري استمر لأكثر من سبعين عاما.

إن عمر الإنسان قصير ضئيل بالنسبة للكون، فهو لا شيء أمام عمر الوجود المهيب، لكن الذكريات ومعظمها تكون مؤلمة في الغالب، تقاس بألاف السنين، إن اللحظات السعيدة لا تبقى في ذاكرتنا كثيرا، بل تنسحب رويدا رويدا لتحل محلها الذكريات المؤلمة والحزينة.

تحقيق في مكتب الكي جي بي

(بتصرف) من مذكرات حبيب الله قادري

حكم ستالين الاتحاد السوفييتي بالحديد والنار، قضى على المفكرين والمتعلمين والمتدينين، حتى أصبح حاكمًا مسلطًا على الرقاب، مما جعل الكثير من بني جلدتنا يهربون بدينهم وعقيدتهم وبهويتهم إلى أفغانستان، ومن ثم إلى الديار المقدسة في المملكة العربية السعودية، والبعض الآخر إلى تركيا، أما من بقي في أوزبكستان فكان بين فكي كماشة لا ترحم.

في كتابه "قتل نامه" أو فرمانات الموت للكاتب الأوزبكي نبي جان باقيNabijon Boqiy، وفي سياق الحديث عن حياة الكاتب والأديب عبد الله قادري، يسرد قصة عن حبيب الله، الإبن الأكبر لقادري، حيث يذكر لنا حبيب الله قادري ما يلي:

"توفيت والدتي في الثالث من مارس سنة 1943 بعد غصة وألم وشجن صاحبتها طيلة فترة انتظار أبي، في العام التالي التحقت بكلية الطب في طشقند، وفي يوم من الأيام، وكان ذلك في بدايات عام 1945 استدعاني مدير الكلية، وكان رجلًا صادقًا ونزيهًا، وأخبرني بأن ثمة مجموعة من الأشخاص يستفسرون عني وأنهم أتوا يسألونه بعض الأسئلة، فلم أكترث للأمر، وقلت له: دعهم يسألون، فأنا أعرف نفسي جيدًا.

كنت وقتها وبسبب وضعي الصحي معفًا من الخدمة العسكرية الإلزامية، كما كان الأطباء ينصحونني بالإبتعاد عن الأعمال الشاقة.

في يوم 29 مايو 1945 وبعد يوم عصيب في الجامعة، كنت عائدًا من الكلية إلى البيت، حيث الاختبارات النهائية تقرع الأبواب ويلزم على كل طالب التركيز والاستعداد لها، فوصلت بالترام سوق جهارسو، ومن هناك مشيت سيرًا عبر الأزقة، فمررت بمدرسة "أوجقون" ثم انعطفت يمنة نحو محلة "سوزك آته"، وبعدها وعبر الجسر الخشبي وذلك المنحدر الشديد وصلت إلى حيث بيتنا.

كنت عائدًا أقرأ بعض المحاضرات وكان الشارع خاليًا من المارة، ولا وجود بتاتًا للعربات، وعندما اقتربت من الباب موشكًا على الولوج عبره، سمعت فجأة أحدهم ينادي من الخلف: سلام يا حبيب الله، التفت خلفي وإذا بي برجل ذو ملامح روسية، في الأربعينات من العمر، عظيم البنية، ويرتدي زيًا عسكريًا، فرددت عليه السلام، فلاحت على وجهه ابتسامة صفراء وهو يلوح بيده نحو بيتنا ويقول: دعنا ندخل للداخل، أدركت وقتها أن هناك أمرًا ما.

عندما دخلت فناء البيت، لمحت أربعة من الرجال يقفون داخل الحجرة الخاصة بأبي، وكانت أعينهم مصوبة نحوي، وبجانبهم أختي وأخي الصغير، وجندي يقف عند باب الحجرة يمنعهما من الخروج.

تقدم إليّ أحدهم وأظهر بطاقته العسكرية وقرأ قرارًا ينص على القبض عليّ، تسمرت مكاني، لا أدرك ما يدور فعلًا، بعدها أخذوا يفتشون الحجرة وباقي البيت.

أخذ هذا الضابط وكان اسمه Vinogradov يرمي الكتب على الأرض، وخاصة الكتب العربية والفارسية لعدم إلمامه بها، وأخذ يتصفح الكتب الروسية، يحملق في أوراقها بعناية، وبعدها وضع الكتب في شوال قائلًا: البقية سنفتش عنها لاحقًا، ثم خرج وتوجه نحو مطبخ بيتنا، وكذلك الإصطبل ثم أمرني بالخروج معهم.

أخذ أهلي يبكون بنواح عليّ، وكأنهم يودعون ابنهم نحو الموت، وعندما خرجنا، كانت جارتنا العجوز في الشارع ترمقهم بنظراتها الحانقة فقالت مستهجنة: ألم يكفهم ما فعلوه بوالدك؟ لماذا يأخذونك أنت؟، لم أقل لها شيئًا، بعدها ركبنا سيارة كانت من طراز Gaz-69، وقتها كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحًا.

في غرفة مهيبة كان الضابطVinogradov وكان برتبة مقدم، منهمكًا بالكتابة، جلست على كرسي ووضعت يدي على ركبي، ساد وقت من الصمت، وبعدها توجه إليّ بالحديث دون أن ينظر لي قائلًا: حسناً يا حبيب الله، كلي آذان صاغية، هيا أخبرني بكل شيء من البداية، قلت له مستغربا: أي بداية تقصد؟ فأجاب: عن جرائمك طبعًا! رددت عليه قائلا: لم أقترف أي جرم، ماهي تهمتي؟ نظر حينها بإزداء نحوي قائلًا: دعنا لا نفسد علاقتنا من أول يوم، بعدها بدأ يحقق معي ولمدة ساعتين من الزمن، ثم أردف قائلًا: يمكنك الذهاب الآن، ولكن في المرة القادمة فكر جيدًا واعترف بكل شيء، بعدها جاء جندي واقتادني إلى الزنزانة.

في هذه الزنزانة كان عددنا أربعة من الرجال، الأول من القومية الأذرية، جيء به ليشهد على حادثة جنائية، وله سنوات عدة في السجن، والثاني من تتار القرم، أستاذ فيزياء نووية في جامعة سمرقند، اعتقل بسبب حريق اشتعل في مختبر الكلية وتحولت قضيته إلى شأن سياسي، والشخص الثالث متهم ببيع نسخ مكتوبة بالأحرف العربية من رواية والدي "الأيام الماضية" في الخفاء، وبسعر ألف سوم للكتاب، وكان يدعى عبد الله ناسخي، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، وعمل بعدها موظفًا بسيطًا في معهد الدراسات الشرقية، وتوفي سنة 1987.

في يوم من أيام التحقيق، قرأ المحقق لائحة الإتهام عليّ وكانت كالتالي: تزعم حركة شبابية مضادة للثورة البلشفية، الاحتفاظ في منزله بكتب ممنوعة تعود لوالده عبد الله قادري، القيام بالدعاية المضادة للحكومة السوفيتية؛ فقلت له: إن الكتب الممنوعة إنما هي تخص والدي، وإن موظفي الأمنNKVD تركوا هذه الكتب بعد تفتيش بيتنا وقتها، واعتبروها غير مهمة، لذا اعترف بالتهمة الثانية فقط؛ فقال المحقق وهو يشير إلى شوال الكتب: لكنك وبصفتك مواطنًا سوفيتيًا صالحًا، كان الأجدر بك إحراق هذه النسخ أو إحضارها لنا؛ فأجبته بقولي: أعتقد أنه يحق لي الاحتفاظ بكتب تخص والدي، وهي تعتبر مخطوطات خطها بيده، وإن كانت الكتب دينية، فمكتبة معهد الاستشراق مليئة بألاف النسخ منها، فهل ينبغي حرقها هي الأخرى؟ رد المحقق ودون مبالاة: لو اقضتت الضرورة لحرقناها كلها.

فكرت في نفسي كيف أنهم وضعوا شخصًا جاهلًا أحمقًا في هكذا منصب، وسكت بعدها وقررت عدم الإجابة على أسئلته، وفجأة اقترب المحقق مني غاضبًا ووضع مسطرة حديدية طرفها كأنه مشرط حاد عند عيني، وقال: هل تحاول اللعب معي أيها الأبله؟ سأقلع عينك بهذه، هل فهمت؟، فأجبته: حتى لو قلعت عيني، فلن أقول إلا الحقيقة، فأنا لا ذنب لي.

بعد يومين أحضرت للتحقيق مرة أخرى، لكن الوضع كان مختلفًا هذه المرة، فقد رأيت رجلًا بزي عسكري، طويل القامة، وبرتبة جنرال، مهندم الزي والقامة، وكانت ملامحه تدل على قوميته الأرمنية، لقبه كابولوف، لقد كان رئيس جهاز الأمن في أوزبكستان السوفيتية.

أجلسوني في وسط الغرفة، بالقرب من مكتب الجنرال، والمحققVinogradov يقف على يساري، وبعد قليل أحضروا رجلًا وأجلسوه على كرسي بجانب الحائط، فحاولت أن أستدير لأراه، فصاح المحقق: لا تنظر خلفك، هذا ممنوع، غير أنني كنت قد لمحت ملامح ذلك الرجل، لقد كان أحد زملاء الدراسة في الجامعة.

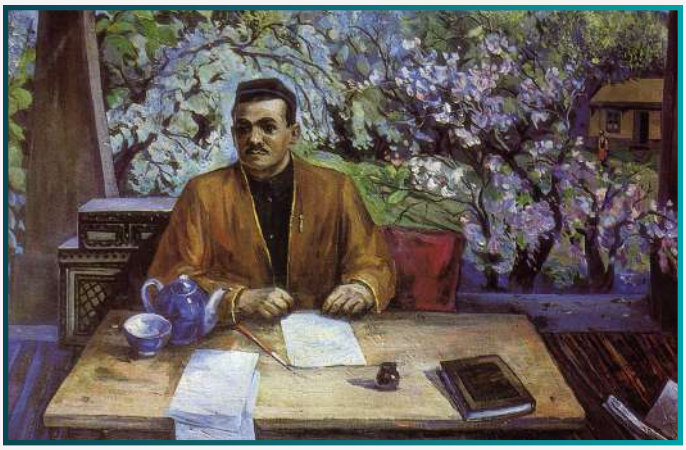

توجه المحقق إليه بالحديث قائلًا: هيا أخبرنا بما تعرفه عن حبيب الله، وعما أخبرك إياه، سمعت زميلي يقول: لقد تعرفت على حبيب الله أثناء الدراسة في كلية الطب، زرته مرة أو مرتان في بيته، وكنا نتقابل كذلك في أماكن أخرى، وأخبرني في يوم من الأيام أن لديهم جماعة ضد الثورة، وطلب مني الانضمام إليهم، وقد وافقت على ذلك.

نظر إلي المحقق وقال: هل سمعت ذلك يا حبيب الله؟ فأجته: نعم سمعته، فليكمل حديثه، فقال المحقق: ليست هناك حاجة ليكمل حديثه، لقد اعترفت بجرمك وهذا يكفي، فقلت: كلامه ادعاء فارغ لا أساس له، إسأله عن برنامج المنظمة وما دوري فيها؟ وما المهمة الموكلة إلي؟ بعدها حاولت أن أنظر خلفي، فصاح المحقق مرة أخرى: لا تنظر إليه؛ ثم جاء جندي واصطحب زميل الدراسة ذاك إلى خارج الغرفة.

أخذ المحقق يكتب محضر التحقيق، ثم قدمه إليّ طالبًا التوقيع عليه، غير أني وقبل أن أوقع كتبت رفضي التام لكلام ذلك الرجل وإفادته، ثم وقعت على المحضر.

كان الجنرال يتابع كل ما يجري بصمت، بعدها قام من مكانه وسار خارجًا من الغرفة وأصوات وقع قدميه تهز الأرضية ولم يقل شيئًا.

استمر التحقيق معي عدة أيام من قبل ثلاثة من المحققين، كل يتناوب على استجوابي مستخدمين طريقة في التحقيق تسمى Konveir وهي من أساليب وطرق التعذيب التي استخدمها جهاز الأمن السري في سنوات القمع السوفيتية في أعوام 1936-1938 وتتلخص في التناوب على التحقيق وعدم إعطاء السجين الوقت الكافي للنوم. ومع ذلك فقد فشلوا في انتزاع أي اعتراف مني أمام مديرهم، بالرغم من أني كنت أجلس وأنا مقيد على الكرسي، والضباط يتناوبون على التحقيق.

وفي يوم التحق بفريق Vinogradov محقق جديد من القومية التترية، كان لقبه Ihsanov، اقترب احسانوف مني ووضع حذاءه العسكري وكان مدببًا بطرف معدني، على فخذي، وضغط بكامل قواه، ومن شدة الألم كاد أن يغمى علي، ثم صاح بصوت عال: هل ستعترف أم لا؟ صرخت من شدة الألم قائلا: على ماذا؟ وفي هذه الأثناء كان الضابط الثالث منهمكًا بقراءة كتاب، وكان من القومية الأوزبكية، وكان هادئًا رصينًا، إلا أني لم أعرف رتبته العسكرية. وبعد أن ضقت ذرعًا

بالاستجواب والتعذيب قررت أن أستعد للموت، حيث وفي أثناء التحقيق وسياق الكلام، قلت لهم: لا توجد حكومة سوفيتية هنا، فسألني Vinogra-dov: وأي حكومة توجد؟ فقلت: توجد مجموعة من العصابات المسلحة، فأجاب: هكذا إذن؟

بعدها جاء هائجًا وصفعني على أذني اليسرى، ومن قوة الصفعة وجدت نفسي طائرا من على الكرسي واقعا عند الحائط، زاغت عيني وفقدت توازني وشعرت بعرق بارد يسري في بدني وبطنين شديد في أذني، بعد هذه الحادثة جلست شهرين وأنا أضع منشفة على أذني، وخلالها لم يحقق معي فترة أربعة أشهر.

بعد كل تلك المدة اُستدعيت للتحقيق مرة أخرى، كانVinogradov وضابط من الادعاء العام يقال له Sobitov، أوزبكي القومية في الغرفة، كان وجه هذا الأخير مليئًا بالبثور الجدرية، ويرى بعين واحدة، بينما الأخرى كانت معطوبة. كان هذا الضابط من الضباط القدماء في الادعاء العام، وكان من الموقعين على قرار سجن والدي وعلى قرار سجني كذلك، وأذكر أني رأيته بعد سنين من هذه الحادثة بالقرب من فندق طشقند المبني حديثًا، وكان قد كبر وهرم وخارت قواه، فاقتربت منه وعرفته بنفسي. لم يعرفني بادئ الأمر، فأعدت تعريفه على نفسي ثم قلت له: هل تعلم أنه قد تمت تبرئتي وكذلك تبرئة والدي، حيث وبعد تولي خروتشوف الحكم في الاتحاد السوفيتي، وفي عام 1956 ندد بجرائم ستالين وبأخطائه ودكتاتوريته، وتمت تبرئة الكثير من ضحايا سنوات القمع الستالينية، لم أقل له شيئًا آخر وواصلت مسيرى وبقي هو في الخلف يتمتم بالكلام.

في غرفة التحقيق اقترب مني سابيتوف: لا تكن متحذلقًا كوالدك وهيا أخبرنا بجرائمك فنحن على دراية كاملة بأمورك، فقلت له بالأوزبكية: أنتم لا تعلمون شيئًا، وإن كنتم على علم لما سجنتوني، ترجم سابيتوف حديثي إلى المحقق وخرج من الغرفة، وبعد أن غادر أخبرني المحقق قائلًا: لقد قمنا بالتفتيش العميق عنك، وصراحة لم نجد أي شيئ يدل على قيامك بالدعاية أو حملة مضادة للسوفييت، لكن أخبرني صراحة؛ لماذا لم تقم بأي حركة ضدنا؟ فقلت له: لأني مواطن سوفيتي صالح، فرد علي قائلا: أنت تعلم جيدًا أننا سجنا والدك وأعدمناه، فكيف تكون بعد كل هذا مواطنًا صالحًا محبًا للسوفييت؟ كيف تريد أن تقنعني؟ فقلت له: والدي أعدم بسبب أفعاله، فأجاب: طبعًا الكل يعاقب حسب أفعاله، ولا أعتقد أنك كنت سعيدًا بذلك، أليس كذلك؟ فرددت هليه قائلا: حدث في التاريخ أن الولد يقتل أباه، والأب يقتل ابنه، وأنا أعلم جيدا أنك تريد الإيقاع بي بحديثك هذا، فقال المحقق: أنت تكره الدولة السوفيتية من أعماق قلبك، وتتمنى أن تثأر لوالدك ولكن الخوف يعيقك، أليس كذلك؟ فقلت له: لا يمكن اتهام شخص لمجرد ما يدور في خلده من أفكار، فما كان منه إلا أن هممم، وقال: حسنًا، يكفي هذا الحديث.

بعدها وقعت على محضر بأني وإن كنت عدوًا للدولة السوفيتية، إلا أنني وبسبب خوفي لم أقم بأي عمل عدائي ضدها، وبعدها بعدة

أيام استدعيت إلى مكتب المحقق Vinogra-dov وأخبرني بأن التحقيق معي قد انتهى، وأن أوراقي ستحول إلى المحكمة العسكرية. كانت معاملته قد تغيرت، ولم ينس أن يعتذر عما بدر منهم، ثم أردف قائلًا: سوف تصدر المحكمة العسكرية حكمها عليك، قد تسجن مدة خمس أو عشر سنوات، سوف تقضي محكوميتك في سيبيريا الباردة، ولا أعتقد أنك ستعود من هناك حيا.

في شهر ديسمبر من عام 1946 نقلت إلى زنزانة أخرى وهناك قرأ عليّ قرار الحكم الصادر من موسكو، وكان كالتالي: بمقتضى المادتين 66-67 من مواد قانون الجنايات التابعة لجمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية، تم الحكم على حبيب الله عبد اللايف بالسجن مدة عشر سنوات في اصلاحيات إعادة التأهيل.

انتابني حالة من الحيرة، كيف حكموا على شخص دون إجراء أي محاكمة، لقد كانت العشر سنوات هذه ضريبة دفعتها لمجرد كوني ابن عبد الله قادري.

أخيرا، توفي حبيب الله قادري في طشقند عام 1987.

أبناء أمير بخارى المحتجزين

في سبتمبر 1920، عندما غادر الأمير سيد عالم خان عاصمته بخارى، اضطر لترك أسرته وأقاربه في المدينة والذين تم أسرهم وكان عددهم 118 شخصًا، أُسروا من قبل الروس في خواجه عارف (المعروفة اليوم بشافركان) ووُضعوا تحت الإقامة الجبرية في مدرسة "خورجون" بمدينة بخارى.

سقط أبناء الأمير الثلاثة أيضًا في يد الروس وهم: سيد سلطان خان، سيد شاه مراد خان، وسيد رحيم خان. كذلك وقع ابنا عمه سيد رحمت الله وسيد سيف الدين في الأسر. تعرّض هؤلاء لتعذيب شديد بطرق مختلفة.

وعندما دخل الجيش الأحمر بخارى، تم التحقيق مع أبناء الأمير الثلاثة من الساعة الثالثة ليلًا حتى الحادية عشرة صباحًا في مسجد ديوان بيغي. وبعد الاستجواب، أُلبسوا ثيابًا كُتب عليها شعارات بالفارسية والأوزبكية من قبيل: "عالم خان ظالم"، "الأمير لا يريد الجمهورية"، "الأمير يجبر الشعب على العبودية"، "احمدوا الله أنكم تحررتم"، ثم جابوا بهم في الأسواق والشوارع. لكن هذا المشهد لم يحقق ما أراده البلاشفة، بل أثار تعاطف الناس معهم وصولا إلى خصوم الأمير أيضا.

أما الأمير نفسه فقد كان في أفغانستان يسعى لإيجاد حلفاء ضد الروس ولجمع السلاح، من دون أن يعرف مصير عائلته. وبعد استلام فيض الله خوجاييف السلطة من عثمان خوجة، أطلق سراح جميع أفراد أسرة الأمير وأرسلهم إلى أفغانستان باستثناء أبنائه الثلاثة. وكتب خوجاييف إلى الأمير رسالة قال فيها: "إذا توقفت عن دعم المجاهدين وألقيت السلاح، فسوف نرسل أبناءك الثلاثة إليك، وإلا فسيبقون عندنا."

لكن الأمير رفض العرض، معتبرًا إياه حيلة روسية كتبها خوجاييف تحت ضغطهم، وردّ قائلاً: "لقد تركت آلاف الأبناء في بخارى أسرى بيد الروس. وتريدون مني أن أوقف القتال مقابل ثلاثة فقط! بالنسبة لي لا فرق بين أبنائي الثلاثة وبقية أبناء بخارى. إذا انتصرنا فسأستعيدهم معًا، أما الأهم عندي فهو تحرير بخارى وتركستان من الروس."

بعد ثلاثة أشهر من التعذيب النفسي والجسدي، نُقل أبناء الأمير إلى موسكو. حيث توفي الابن الأكبر سلطان خان هناك بعد أن أصبح معاقًا بإحدى ساقيه. أما الابن الأصغر عبد الرحيم خان فقد أظهر كرهًا علنيًا للنظام السوفيتي، فاتهموه بالتجسس وأُعدم رميًا بالرصاص عام 1937، وأما الابن الأوسط شاه مراد خان، فقد كان مصيره مختلفًا، ففي عام 1922 أُرسل مع مجموعة من الشباب إلى ألمانيا للدراسة، وأُعطي جواز سفر باسم "شاه مرادوفيتش عاليموف". ورغم إتقانه اللغة الألمانية، لم تتحقق أمنيته بالدراسة هناك.

وفي 16 يونيو 1929 نشرت جريدة "إزفستيا" مقالة بعنوان "من ابن أمير بخارى السابق إلى أبيه"، أعلن فيها شاه مراد أنه يتبرأ من أبيه. ويُرجَّح أن هذه الرسالة كتبها إما تحت تهديد السلطة أو بإلحاح من أصدقائه وخطيبته جوهر باشييفا.

بعد هذا "التبرؤ"، فُتحت أمامه أبواب المستقبل: قُبل في مدرسة عسكرية، وشارك في نشاطات علمية، وأصبح يعيش بحرية أكبر. حاولت والدته محرم آيم أكثر من مرة الحصول على إذن لزيارته من السفارة السوفيتية في كابل، لكن في عام 1933 جاءها الرد من مدرسته العسكرية: "نحن نتلقى تعليمًا سوفيتيًا، ورؤيتك لنا أمر محرّم."

انتقل شاه مراد عاليموف بعد تخرجه إلى موسكو، حيث عاش في شارع كورولنكو، ودخل مهندسًا إلى مصنع عسكري، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية للهندسة. شارك في الحرب العالمية الثانية، ونال عدة أوسمة، لكنه أصيب إصابة خطيرة أدت إلى بتر إحدى ساقيه عام 1944. بعد الحرب عمل في الأكاديمية نفسها حتى أصبح جنرالًا. وبحسب زوجته ليديا ميخايلوفنا، كان أحيانًا يبكي وهو يتذكر وطنه ووالديه. توفي الجنرال شاه مراد عاليموف في موسكو سنة 1985.

أما رسالته المنشورة في "إزفستيا" عام 1929، فقد كانت مليئة بتمجيد النظام السوفيتي واتهام والده بالاستبداد وخيانة الشعب. لكن كثيرين اعتقدوا أنها لم تُكتب بإرادته الحرة. وعندما وصلت الرسالة إلى الأمير في كابل، قرأها وابتسم وقال: "لا أصدق أن ابني كتبها."

كان هدف الروس من الرسالة تذكير الأمير بأنهم يملكون ورقة ضغط قوية ضده من خلال أبنائه، وللتشويش على محاولاته تحريض شعب بخارى ضدهم.

صحيح إن سقوط الإمارة كان حتميًا وربما ضروريًا، لكن الطريقة التي استُخدمت عبر أيدي المثقفين المحليين، أدت إلى انقسام الشعب لعقود. وبعد سقوط الإمارة ركز السوفييت على تشويه صورة الأمير في أذهان الناس، ونجحوا في ذلك.

وباء الكوليرا – طشقند 1892

عندما تسير في شوارع طشقند خاصة التي تقع في وسطها، تلاحظ مدى وسع الشوارع وجمال الحدائق بأشجار البلوط العالية والمعمرة، حتى تظن أن المدينة عبارة عن حدائق وأشجار. وعلى مقربة من ساحة الاستقلال أو الساحة الحمراء كما كانت تسمى إبان العهد السوفييتي تستطيع أن ترى الأشجار الباسقة العالية وخاصة تلك التي تصطف بمحاذاة نهر "أنهار" أو أنخار كما يسمونه، وهو النهر الرئيسي الذي يمر من وسط المدينة قادمًا من نهر تشرشيك.

أتى الجنرال الروسي تشيرنيايف واحتل بقواته طشقند في يونيو 1865 وأخذها عنوة بعد قصف أسوارها بالمدافع وقطع الماء عن سكانها حتى اضطرت إلى الإستلام. لم يكن هذا الاحتلال مؤقتًا بل كان خطة قيصرية ليكون لهم موضع قدم في آسيا الوسطى، لعدة أهداف، منها إيجاد مصدر خام من القطن بعد تضاؤل القطن الأمريكي بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وثانيا، إيقاف الزحف البريطاني لمناطق وسط آسيا، خاصة بعد أن تمركزوا في الهند.

بدأ الروس في بناء مستوطنة لهم على الضفة اليسرى للنهر، فكان النهر حدًا فاصلًا بين القسم الإسلامي من المدينة، وبين القسم الروسي الأوروبي، وبما أنهم كانوا يرددون دائمًا أنهم أصحاب حضارة وتقدم، واعتبروا غزوهم "رسالة روسيا الحضارية"، فقد أرادوا إظهار ذلك عبر التخطيط الأوروبي للشوارع، وإنشاء حدائق كبيرة لتحاكي الحدائق في سان بطرسبرج، وبناء قصور ومبان على الطراز الأوروبي.

في الفصل الثالث من كتاب "المجتمع الاستعماري الروسي في طشقند 1865-1923 للكاتب الأمريكي Jeff Sahadeo يتكلم المؤلف عن وباء الكوليرا والذي انتشر على نطاق واسع في الإمبراطورية الروسية ومن ضمنها طشقند، حيث يقول:

"في 24 يونيو 1892، عبر حشد من المحليين قناة أنهار إلى الجزء الروسي من طشقند. كان الحشد يسعى لمنع محمد يعقوب المدير الرئيسي لطشقند الآسيوية، من الاجتماع مع قائد المدينة ستيبان آر. بوتينتسيف Botintsev. كان محمد يعقوب ينوي الإبلاغ عن عصيان واسع النطاق لإجراءات الروس الاستعمارية المضادة للكوليرا، والتي كانت تُنظر إليها كانتهاك لمبادئ الطب والثقافة المحلية. كان الحشد متأخراً جداً، إذ واجه بوتينتسيف ومحمد يعقوب معاً. أُلقيت بعض الحجارة واللكمات على قائد المدينة بعد رفضه مطالب رفع الإجراءات. ومع ذلك، سعى معظم المتظاهرين إلى ملاحقة محمد يعقوب الهارب باتجاه مبنى إدارة البلدية، حيث دمروا الملفات المستخدمة لحكم طشقند الآسيوية. رد المستوطنون الروس على أفعال الحشد بالقوة. وانضم الكتبة والمحاربون القدامى ورجل دين أرثوذكسي إلى الجنود الواصلين، سعى الجنود والمستوطنون خلف المتظاهرين الذين كانوا يحاولون العودة إلى طشقند الآسيوية، وهاجموا أي محلي وجدوه في المنطقة المحيطة. أُلقيت الجثث في قناة أنهار، في اليوم التالي تم استخراج ما لا يقل عن ثمانين جثة.

لقد دمّر وباء الكوليرا سنة 1892 محلات طشقند (الأحياء الشعبية) في حين نجا معظم سكان الأحياء الأوروبية. وانتشرت شائعات بأن الروس

قد سمموا الآبار. وفي الوقت نفسه فسّر المسؤولون مقاومة الأهالي للحجر الصحي والفحوص الطبية باعتبارها علامة على التخلف. وقد استاء السكان المحليون من الأساليب الفوقية للسلطات الاستعمارية، التي فرضت لوائح صحية دون استشارة الزعماء المسلمين أو شرح التدابير الطبية.

بالنسبة للروس، أظهرت الكوليرا ضعف السكان المحليين وضرورة التدخل الاستعماري. أما بالنسبة لمسلمي طشقند، فقد أكّد الوباء شكوكهم تجاه لا مبالاة الروس، إن لم يكن عداءً صريحًا، لحياتهم ورفاهيتهم.

بالنسبة للمسؤولين الروس، عزّز وباء الكوليرا الصور النمطية عن السكان المحليين باعتبارهم جهلة وغير نظيفين. وأصبحت الإخفاقات الصحية مبررًا إضافيًا للحكم الاستعماري، إذ كان يُنظر إلى الأهالي على أنهم عاجزون عن إدارة الصحة العامة.

ومع ذلك، كشف الوباء ضعف الروس من حيث نقص الكوادر الطبية والبنية التحتية، إلى جانب عجزهم عن كسب ثقة السكان المحليين. وهكذا عكس الصراع ضد الكوليرا تناقضات الإمبراطورية الأوسع التي تسعى إلى إظهار القوة والتفوق، لكنها تكشف في الوقت نفسه هشاشتها واعتمادها على تعاون الأهالي.

ترك وباء الكوليرا أثرًا عميقًا في المجتمع الاستعماري بطشقند. فبالنسبة للأوروبيين، برّر الوباء السياسات القائمة على الفصل، ورسّخ تقسيم المدينة إلى فضاءات «نظيفة» أوروبية و«غير نظيفة» محلية.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن ذكريات لا مبالاة الروس أو عدائهم أثناء الأزمة قد غذّت مشاعر الاستياء وانعدام الثقة التي استمرت حتى القرن العشرين. أصبحت الصحة العامة ساحة متنازعًا عليها، إذ كانت كل حملة صحية تحمل أصداء الكوليرا، حيث يستحضر الأهالي ذكريات القسر والإقصاء، فيما أصر الروس على رسالتهم التمدينية. وهكذا لم يقتل الوباء آلاف الأشخاص فحسب، بل عمّق أيضًا الحدود الرمزية بين الحاكم والمحكوم".

لقد هذا النهر فاصلًا بين طشقند القديمة ذات الطابع الإسلامي بأحيائها وشوارعها والتي كان الروس ينظرون إليها كأحياء فوضوية، وبين قسم روسي اوروبي حاولت السلطات القيصرية إظهار روسيا فيه بالدولة المتطورة الجالبة للحضارة، إلا أن هذه الصورة تغيرت مع مرور الزمن، فقد كان المستوطنون الأوائل من العسكرين ومن النخبة الروسية الثرية، ولكن ومع الإخفاقات الاقتصادية في روسيا هاجر العديد من الفقراء الروس إلى طشقند واستطونوا القسم الأوروبي جالبين معهم عادات سيئة كالإدمان على الخمور وانتشار الدعارة، فكانوا سلاحا ذو حدين، فهم يعدون مصدر قوة وعامل للتغيير الديموغرافي في وسط بحر هائج من الأوزبك المسلمين، ومن جهة أخرى كانوا يلوثون سمعة روسيا المتحضرة، فقد كانت سمة الفقر والعوز والجهل منتشرة في أوساطهم.

حرب عرقية في فرغانة

صحن الفراولة الذي أشعل فرغانة

صحيح أن معظم النار من مستصغر الشرر، ولكن الأعظم عندما تكون الشرارة مفتعلة بفعل فاعل لا يراعي ذمة ولا ضميرًا، شرارة تحرق وتكوي وتقتل وتدمر لأجل بقاء نظام وسلطة قد شارف على النهاية، وتهالكت أجزاؤه.

اندلعت هذه الشرارة في مايو عام 1989، في سوق شعبي بسيط في بلدة "قوا ساي" التابعة لولاية فرغانة في أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية، في يوم عادي حيث المزارعون يفتشرون الأرض لبيع محصولاتهم الزراعية، من فروالة وكرز ومشمش، فواكه تبدأ في اكتساح الأسواق مع اشتداد حرارة الشمس بداية مع منتصف أبريل.

يأتي رجل من قومية الأتراك المساخيت ليشتري من بائعة أوزبكية بعض الفراولة، يدور نقاش بينهما حول السعر، يغضب التركي ويقذف بصحن الفروالة على الأرض وتتناثر، فتغضب البائعة وتشتمه، فيرد عليها بعبارات أشنع، ويتدخل بعض الشباب الأوزبك ويضربون الرجل التركي حمية وعصبية.

وكالنار المنتشرة في الهشيم تدور شائعة في أنحاء فرغانة أن شباب أتراك اغتصبوا فتاة في مرغلان البلدة القريبة، يحتشد الأوزبك في قوا ساي ومرغلان الجديدة "كومسمولسكي" وقوقند ويبدؤوا في مهاجمة أحياء الأتراك حاملين الهراوات والسكاكين والفؤوس، وبما أن الكثرة تغلب الشجاعة، ينهزم الأتراك وتضرم النيران في بيوتهم.

إشاعة أخرى تقول إن شجارًا وقع بسبب طابور أمام محل لبيع البيرة بين أوزبك وأتراك مساخيت، ومن ثم اندلعت أعمال العنف، وهكذا نرى في كل هذه السيناريوهات وجود القومية التركية، ولكن وقبل أن الخوض في أحداث هذه المذابح وجب أن نتساءل عن كيفية وجود الأتراك المساخيت في أوزبكستان.

نعود إلى الوراء قليلًا، أي قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا في يوليو عام 1944، حيث يرفع وزير الشؤون الداخلية لافرينتي بيريا Lavrentiy Beria في الاتحاد السوفييتي تقريرًا سريًا إلى جوزيف ستالين برقم 7896 عن أتراك جمهورية جورجيا السوفيتية والتي تشترك مناطقهم بحدود مع تركيا، حيث يقول: على مدار السنوات، أظهر جزء كبير من هؤلاء السكان، المرتبطين من خلال الروابط والعلاقات العائلية بسكان المناطق الحدودية في تركيا، مشاعر الهجرة والهروب إلى تركيا، وشاركوا في التهريب ويعملون كمصدر لوكالات المخابرات التركية لتجنيد عناصر تجسس وزرع مجموعات عصابات، وبناء على ذلك قررت "لجنة دفاع الدولة" في 31 يوليو من نفس العام ترحيل الأتراك المساخيت إلى مناطق جمهوريات كازاخستان وقيرغزستان وأوزبكستان السوفيتية، وتم تنفيذ القرار على مراحل حتى بلغ عدد المرحلين من مناطقهم 115 الف تركي. وتاريخيًا يعتبر البعض أن هؤلاء الأتراك هم في الأصل جورجيين اعتنقوا الدين الإسلامي خلال حكم الأتراك العثمانيين لمناطقهم.

تواجد الأتراك المساخيت في منطقة ولاية فرغانة في مدن مرغلان ومرغلان الجديدة وقواساي وقوقند وبيش أرق وكذلك في مدينة فرغانة نفسها، كما كان يعيش عدد لا بأس به في منطقة بوكاBo'ka وباركنتParkent في ولاية طشقند. وكانوا كبقية السكان المحليين يعملون في التجارة والزراعة، وخاصة زراعة القطن.

بعد حادثة الفراولة اندلعت في "قواساي" أحداث عنف يومي 16 و18 مايو، وانتشرت الشائعات عن هجوم أتراك على روضة أطفال، كما انتشرت صور مفبركة عن حوادث اغتصاب، فحمل الشباب الأوزبك الهائج الهراوات والسواطير وأخذوا يهجمون على منازل الأتراك في البلدة، فكان أن تدفقت قوات الشرطة وتوقفت أعمال العنف، وبلغ حصيلة أعمال العنف إصابة 58 شخصًا بينهم شرطيان، وفي اليوم التالي توفي أحد المشاركين الأوزبك في أعمال العنف.

في الثالث من يونيو اندفع الشباب الأوزبك في بلدة "تاشلاق" إلى أحياء الأتراك وأضرموا النيران في منازلهم، وبعدها انتقلوا إلى "يانجي مرغلان" أو مرغلان الجديدة ودمروا وأحرقوا منازل أخرى، وفي نفس الليلة في مرغلان احتشد 400 شاب يهاجمون منازل الأتراك، وفي 4 يونيو قامت السلطات بنقل الأتراك المساخيت وعبر حافلات إلى مقر مبنى الحزب الشيوعي المحلي في "تاشلاق"، فقامت الحشود بالهجوم على المقر مطالبين بالإفراج عن الأوزبك المعتقلين وتسليم الأتراك الجناة، ونتيجة هذا الهجوم تدمر جزء من المبنى وكذلك مبنى الشرطة، واستطاع بعض الشباب الغاضب من اقتحام مبنى الشرطة، وأصيب يومها 15 من الشرطة وتوفي أحدهم جراء الإصابة.

وفي نفس اليوم كانت الحشود تتجمع عند مبنى السينما في مرغلان وقامت السكرتيرة الأولى للحزب الشيوعي المحلي بمخاطبة الأعداد الغاضبة وطالبتهم بالهدوء، إلا أن تلك الطلبات ذهبت سدى، وقام المحتشدون بإنذار السلطات بشكل نهائي مطالبين بتسليم الأتراك، كما قام شباب يتراوح أعدادهم ما بين 300-200 مهاجما بإضرام النيران في منازل الأتراك القريبة من مطار فرغانة.

ومع تطور هذه الأحداث أصدرت رئاسة مجلس السوفيات الأعلى لجمهورية أوزبكستان السوفييتة قرارًا بفرض حظر التجول في عدة مناطق من ولاية فرغانة، وبرغم هذا القرار استمرت المسيرات في وسط مدينة فرغانة عند

ميدان "لينين" بالقرب من مبنى لجنة فرغانة الإقليمية الذي تمكن الحشد من اقتحامه حيث يختبأ الأتراك، إلا أن السلطات كانت قد استطاعت إجلاءهم وإخراجهم من هناك.

يقول الأتراك المساخيت أن عدد من تم طردهم من أوزبكستان السوفيتية حينها بلغ 160 الف شخص، كما يتهم بعضهم بتواطئ جهاز الكي جي بي المحلي مع المهاجمين الأوزبك، ويدعون قيام الأوزبك بأعمال وحشية وفضائع رهيبة من قطع للرؤوس، وإحراق أناس وهم أحياء، واغتصاب للنساء وقتل للأطفال.

كما يدعون بأن ارهاصات هذه الحوادث كانت بدأت قبل ذلك، نتيجة لدعوات حزبي "بيرليك" الاتحاد، وحزب "إرك" الحرية، وتوزيعهم نشرات تدعو إلى طرد الأتراك والروس والتتار والأرمن، كما تتهم هذين الحزبين باستقبال المتطوعين للمشاركة في "المذابح" المستقبلية.

الجانب الأوزبكي كانت له روايته الخاصة أيضًا، وعادة تنحصر في صعوبة العيش مع الأتراك المساخيت، وتفوقهم في التجارة وتشكيل مجموعات من الشباب لتخويف الأوزبك. وعندما بدأت رياح التغيير تهب في الاتحاد السوفيتي أخذ الأوزبك في الحديث عن هذه الظاهرة، مع دعوات بدأت عام 1988 كان بعض القوميين الأوزبك يدعون فيها لطرد الروس والأرمن والتتار والأتراك من أوزبكستان تحت شعار: "أوزبكستان للأوزبك".

قد يتسائل البعض عن عدم إنسجام الأتراك المساخيت مع إخوانهم الأوزبك، مع أنهم يتشاركون في اللغة والدين، وقد يعود السبب إلى أن الأوزبك يتمتعون بعقلية شرقية متواضعة، بعكس الأتراك الذين كانوا يحملون طباعًا قوقازية صارمة.

هذا كان سردًا لما حدث، وإن استمعنا للجانب الأوزبكي المعروف عنه بالطيبة واللين واللطف، لنكتشف حقًا بأنها كانت حوادث مفتعلة، وسيناريوهات تكررت في أنحاء عدة من الاتحاد السوفيتي.

إن الدولة العميقة في الستار الحديدي كانت تريد من خلال هذه الفضائع إيصال رسالة للشعوب مفادها إن انهيار الدولة السوفيتية سيكون لها عواقب وخيمة، وأرادت في الوقت نفسه وأد حركة إعادة البناء "البروسترويكا" الجورباتشفية، ويتضح ذلك من خلال مشاهدات السكان المحليين الذين ذكر الكثير منهم أن المهاجمين لم يكونوا من أبناء المنطقة، وأن المهاجمين كان يوزع عليهم المواد المخدرة والمشروبات الكحولية بالمجان.

هناك عامل آخر وهو أن رغبة الأتراك المساخيت في العودة إلى مناطقهم الأصلية في جورجيا كانت تقض مهجعهم وكذلك الأرمن الذين استوطنوا مناطق الأتراك المساخيت بعد تهجيرهم القسري عام 1944.

لقد قام الكثير من الأوزبك بالوقوف ضد المهاجمين، ولجأ العديد من الأتراك إلى بيوت جيرانهم الأوزبك، والذين تعرضوا بدورهم لكثير من الخسائر، لقد كانت أعمال وحشية غير إنسانية

دفع الجانب التركي فيها الكثير من الضحايا وتلقى الألم والأسى، ولا يمكننا في الوقت نفسه إلقاء اللوم على الشعب الأوزبكي المضياف.

في السابع من يونيو 1989 توجه أكثر من 5000 قروي أوزبكي من مناطق "ريشتان" و"فروزنسكي" و"تاشلاق" وفرغانة، وكذلك من بلدات في ولاية نمنكان المجاورة، إلى قوقند عبر شاحنات وحافلات حيث يعيش في المدينة 1500 من الأتراك المساخيت، وكانوا يحاولون مغادرة المدينة، إلا أن الشرطة كانت تعتقلهم وتعيدهم إلى مراكز الشرطة المقامة على أطراف المدينة.

قام الحشد بالإستيلاء على مصنع الطوب ومبنى الشرطة وأطلقوا سراح 68 سجينًا من مركز الإيقاف الاحتياطي، اختبأ الأتراك في مستودع السيارات وفي المستشفيات، ورغم ذلك وقع الكثيرون منهم ضحايا وأحرقت منازلهم وكذلك منازل الأوزبك المحليين، وتم الاستيلاء على السلاح من مركز الشرطة في بلدة "بيش أرق" Besh arik.

مع منتصف شهر يونيو بدأت السلطات تستوعب صعوبة كبح الإضطرابات، وظهرت مخاوف من انتشارها لمناطق أخرى في آسيا الوسطى، وبدأت أقليات أخرى كالروس والتتار والأرمن في المغادرة والعودة إلى روسيا، لذا قررت السلطة إخراج الأتراك إلى روسيا وأذربيجان والشيشان ومناطق أخرى في القوقاز. وبالفعل تم تجميع الأتراك في ملاعب في مدينة فرغانة تحت حماية مكثفة من الجيش، وبحلول نهاية الصيف كان قد تم نقلهم بواسطة الطائرات العسكرية إلى خارج أوزبكستان.

لا يزال سكان الوادي غير قادرين على فهم كيفية حدو ذلك، فالأوزبك المحبين للسلام، الذين اشتهروا دائمًا بتوفير المأوى للمحتاجين، بدأوا فجأة في قتل جيرانهم. ومن هنا ربما تكون محاولات إقناع الجميع بأن المذابح تم التخطيط لها من قبل قوة ثالثة. لكن لا أحد يستطيع أن يشرح ويثبت هذه النظرية بوضوح.

بعد المذابح، غادر ما يقرب من مائة ألف من الأتراك المساخيت أوزبكستان. لديهم اليوم جالية كبيرة في روسيا وأذربيجان وكازاخستان وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ترحيل الكوريين إلى أوزبكستان

إن المسافر إلى طشقند قد يلاحظ اختلافًا واضحا في سحنات الناس، وأقول طشقند بالذات لأنها كانت مدينة سوفيتية متعددة الأعراق والقوميات، كانت تعج بالروس والأرمن واليهود والجورجيين والشيشان والتتار، أما باقي الشعوب المحلية فحدث ولا حرج.

وخلال التجول في الأسواق الشعبية تلاحظ أن باعة قسم السلطات لا يشبهون الأوزبك بل تراهم أقرب إلى الصينين أو الكوريين، وهم بالفعل من القومية الكورية، ولعلك الآن تتسائل عن سبب وجودهم هنا.

إن التاريخ شاهد على حوادث ووقائع دامية، حيث اشتهر كل طاغية بجرائم بقيت في صفحات التاريخ، لكن أكاد أجزم بأن جوزيف ستالين هذا الجورجي الذي حكم بالنار والحديد فاق الجميع في الإجرام، فبالإضافة إلى قتله لأكثر من عشرين مليون إنسان في كافة الإتحاد السوفيتي، اشتهر بترحيل ونفي شعوب كاملة، فقد نفى تتار جزيرة القرم والشيشان والأنغوش وأتراك المساخيت إلى أوزبكستان، ونفى التركستانيين (أوزبك، كازاخ، قيرغيز، طاجيك، تركمان) إلى معكسرات العمل "الغولاغ" في سيبيريا، أو جعلهم يهربون إلى أفغانستان ومن ثم البلاد العربية وخاصة المملكة العربية السعودية، والجدير بالملاحظة أن التركستانيين لم يهاجروا إلى الديار المقدسة خلال عصر القياصرة ولا في عصر بداية البلاشفة تحت حكم "لينين"، بل كانت الموجة الأكبر في عهد هذا الظالم بين سنوات 1926-1932 حيث شدد الحراسة بعدها على الحدود ولم يستطع أحد الهروب من السياج الحديدي الستاليني.

تعود قصة الكوريين إلى عام 1937 حيث أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في سبتمر من ذاك العام أمرا بتهجير السكان الكوريين من مناطق "منشوريا" في الشرق الأقصى إلى آسيا الوسطى وكازاخستان تحت مخاوف من الإستفادة منهم في عمليات تجسس قد تقوم بها اليابان ضد الاتحاد السوفيتي، حيث كان الكوريون يُنظر إليهم كحلفاء محتملين لليابان بسبب قربهم الثقافي والجغرافي، ونشرت صحيفة "برافدا" Pravda (الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي) مقالاً في 1937 تتهم الكوريين بالتعاون مع الجواسيس اليابانيين، مما مهد الطريق للقرار الرسمي.

بدأت عمليات الترحيل في نهاية سبتمبر 1937، ومنح الكوريون حدًا أدنى من الوقت لجمع أمتعتهم، ثم حُملوا في قطارات تتكون من خمسين عربة بعضها مخصص للركاب وبعضها كانت عربات للماشية، وكانت العربة الواحدة تستوعب ثلاثين شخصًا تقريبًا.

لقد تم ترحيل ما يقارب 175 ألف كوري عبر رحلة طويلة قطعت فيها القطارات مناطق سيبريا الباردة بطول 6400 كم واستمرت الرحلة عدة أسابيع في ظروف قاسية، ووصفت هذه القطارات بقطارات "الأشباح" لأن الجثث كانت ترمى في الطريق دون دفن. قدر المؤرخون أن بين 16,500 و50,000 كوري ماتوا أثناء الرحلة. وانتهمت عمليات الترحيل مع نهاية أكتوبر من نفس العام.

قُسم المرحلون بين كازاخستان السوفيتية (حوالي82,000) وأوزبكستان السوفيتية (حوالي86,000)، حيث أُرسلوا إلى مناطق نائية وغير مأهولة في السهول الوسطى الآسيوية. في أوزبكستان، سُيِّروا إلى مزارع جماعية (كولخوز) في طشقند ومناطق أخرى. كان هذا التهجير الأول الكبير لقومية كاملة، ومهد الطريق لهجرات أخرى مثل الشيشان وتتار القرم خلال الحرب العالمية الثانية، حيث تم تهجير أكثر من ثلاثمئة وثلاثة ملايين إنسان من 13 قومية مختلفة.

عاش معظم الكوريين في أوزبكستان في طشقند وحواليها في الأرياف وفي مدن فرغانة ومناطق قاراقالباق ويعود لهم الفضل في تطوير زراعة الأرز والبصل والجزر، وعمل معظمهم في مزارع جماعية "كلخوز" وكان يمنع انتقالهم إلى مناطق أخرى في الاتحاد السوفيتي، وتعرضوا لقيود شديدة في حقوقهم خاصة أثناء الحرب مع اليابان.

بعد وفاة الطاغية ستالين تم إعادة تأهيل الكوريين وغيرهم من القوميات، ففي أعوام 1953-1957 رفعت جميع القيود الرسمية عليهم، وبقي حظر غير معلن خاصة في مجال النمو الوظيفي في الحزب وفي المجالات الأمنية والعسكرية، ولكن في السبعينات لم يكن هناك تمييز ملحوظ وظهر منهم من ارتقى إلى مستوى سكرتير اللجنة المحلية، وشغلوا مناصب وزراء ونواب وأكاديميين.

يتسم الكوريين في أوزبكستان بالطيبة وحب مساعدة الغير وروح التعاون، ويجيد الكثير منهم اللغة الأوزبكية، وكان الجيل الأول منهم يعتنق البوذية والكونفوشيوسية والشامانية، وبعد الترحيل وتشكل ما يسمى بـ"الكوريين السوفييت" اعتنق الكثير منهم الأرثوذكسية الروسية، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي انتشرت في أوساطهم حملات تبشيرية كاثوليكية كانت تلقى دعما من كوريا الجنوبية.

يتراوح عددهم اليوم مئتي ألف كوري يعيشون في أوزبكستان، ويتمتعون بجميع حقوق المواطنة، ولهم نوادي ثقافية ودور عبادة ويلقون اهتمامًا بالغًا من قبل كوريا الجنوبية، وتولى الكثير منهم مناصب وزارية في الجمهورية.

إن عمليات التهجير القسرية اللانسانية بقيت لعنة تطارد حكم ستالين الطاغية، وإن التاريخ لن ينسى صرخات وبكاء الأبرياء وسط تلك العربات المظلمة الباردة تتحرك في سهوب سيبريا الباردة، وهي تقذف من جوانبها الجثث لتأكلها الدببة والذئاب.

لكن هذه هي الحياة التي تقف صماء غير مبالية بصرخات الإنسان، وينبغي علينا أن "نتخيل سيزيف سعيدًا" كما يقول الفرنسي "ألبير كامو" في روايته، حتى نتقبل عبثية الوجود ونبحث عن المعنى في الصراع نفسه، فليس هناك هدف نهائي من هذا كله.

النظام الشيوعي: وفر كل الخدمات وقتل روح المسؤولية

ما إن يعلم قريبك عن وجودك في أوزبكستان وأنت القادم من ديار الحرمين الشريفين، حتى يترك أعماله ومشاغله ويتفرغ لشرف خدمتك. هذه الأخلاق والسجايا من الخصال الحميدة الجميلة عند الناس، ولعل التربية في الأسرة وعادات المجتمع صقلت من شخصياتهم، فغدت متعاونة تحب مساعدة الغريب والضيف.

لقد كان الحكم السوفيتي يغلب عليه النظرة المادية البحتة للحياة، إلا أنها لم تستطع محو الخصال والأخلاق الطيبة لدى النفوس، كان المجتمع الأوزبكي في بداية التسعينات خارجًا للتو من الحكم السوفييتي، وكان بعيدًا في مجمله عن شعائر الدين، كالمحافظة على الصلوات، وصيام رمضان، والإلتزام بالحجاب، لكن ما حيرني في حينه هو انتشار مظاهر الصدق، والأمانة، وإكرام الضيف، وتبجيل الكبير والعالم، والتفاني في خدمة الغريب.

لقد كانت الأنانية الفردية تكاد تكون معدومة فيهم، بعكس المجتمعات العربية والتي هي أقرب للإسلام وأعمق في معرفة أوامره، وإني لأعزو ذلك إلى التربية في البيت، وإلى النظام الشيوعي الذي كان يحارب الأنانية الفردية، وكان يعدها من الأفكار الرأسمالية السامة الهدامة.

في أوائل يناير 1994 اصطحبني أحد أقربائنا لزيارة قريتهم، قرية تسمى «بوز» وهي ناحية من نواحي ولاية أنديجان كبرى مدن وادي فرغانة، بينما بقي والدي في طشقند محبذين المكان الدافئ، وتوفر الخدمات من ماء حار، وماء بارد، وتدفئة مركزية، وغاز وكهرباء، على السفر في وسط تلك الأجواء التي قاربت الصقيع.

سافرت مع قريبي بالقطار وكان يمر وقتها عبر مدينة خوجند أو لينين آباد كما كانت تسمى في عهد السوفييت وذلك في طاجيكستان المجاورة، لأن الجبال الشاهقة التي تفصل ما بين طشقند ووادي فرغانة كانت تقف حائلًا لعبور القطار، ناهيك عن خطورة السفر بالسيارة في وسط الثلوج وما قد يصاحبها من إغلاق للطريق بسبب الانهيارات الثلجية المميتة.

بعد أن وصل القطار مدينة خوجند، صعد القاطرة رجال الأمن الطاجيك وألقوا نظرة سريعة علينا ولم يسألوا عن أوراق أو جوازات ثم نزلوا. واصل القطار بعدها طريقه حتى دخلنا أوزبكستان مرة أخرى عبر قوقند التي كانت عاصمة بلاد فرغانة وإمارة قوقند قبل السوفييت، بعد مدة توقف القطار في مدينة مرغلان، وهي بلدة أمي فجاشت نفسي بمشاعر وأحاسيس جياشة.

أخبرني قريبي أننا سنذهب مشيًا إلى محطة الحافلات القريبة ونستقل من هناك حافلة إلى قريتهم، سرنا مسافة أكثر من كيلو مترين تقريبًا في وسط جو شديد البرودة، وكنت أسير خلف قريبي متسائلًا في نفسي متى سنصل تلك المحطة «القريبة» كما ادعى، كان قريبي يدرك ضجري ويلاطفني بالكلام بين الحين والآخر.

وصلنا المحطة وكنت أعتقد أنها ستكون مبنى دافئا فيه بعض المشروبات الساخنة، لكني اكتشفت أنها موقف حافلات في طريق عام، والرياح الباردة تصفع وجوه المنتظرين، وقتها علمت لماذا اختار والدي البقاء في طشقند.

وقفنا مع مجموعة أخرى من المسافرين رجالا ونساء، والكل يرتدي المعاطف الصوفية الثقيلة والقبعات ذات الإيحاء السوفييتي، فوقتها لم تكن موديلات الملابس العالمية قد دخلت أوزبكستان.

وصلت حافلة سوفيتية الصنع من ماركةLAZ695 ، فصعدنا إليها، وكم شعرت بنعمة الدفء الصادر من اكتظاظ الركاب في الحافلة. وبعد أن سارت الحافلة مسافة نصف ساعة تقريبًا، توقفت عند القرية، فنزلنا لتواصل الحافلة طريقها نحو أنديجان.

كان الضباب الكثيف يغطي القرية، وكان الهدوء يعم المكان، فقد كانت حياة أغلب سكانها من المزارعين شبه متوقفة بسبب فصل الشتاء، لذا

عاينت كثرة الزيارات العائلية بين الناس في هذه الأوقات، وكنت أشعر بقوة الحياة الاجتماعية لديهم، مدركًا الفارق بين حياة المدن والقرى.

في المساء وبعد أن تناولنا العشاء، قامت إحدى قريباتي بفرش فراشي الذي كان مكونًا من طبقات من الفراش القطني ويسمى Kurpacha وأغطية ثقيلة حتى تقيني من البرد، كما أحضر ابنها مدفأة كهربائية ووعاء فيه ماء، فسألت عن سبب وعاء الماء، فقال: إن المدفأة الكهربائية تسبب جفافًا في هواء الغرفة، مما يؤدي إلى الشعور بآلام في الحلق والأنف، لذا يضعون الماء حتى يرطب هواء الغرفة.

في الصباح كان الفطور مكونًا من خبز ومكسرات مثل الجوز واللوز والزبيب والعسل والقشطة الطبيعية والشاي الأخضر الدافئ، وكل هذه الأطعمة هي من إنتاجهم، عدا الشاي والسكر، فهم في النادر ما يشترون من الخارج، وهذا هو أسلوب حياة معظم أهل القرى في أوزبكستان، ففي كل بيت يوجد مزرعة خاصة بالأسرة، يزرعون فيها أنواع الخضروات، كما توجد في كل بيت أشجار مثمرة كالعنب والكرز والمشمش والتفاح والخوخ، وأشجار مكسرات وخاصة الجوز واللوز، ويشتهر وادي فرغانة بأجود أنواع الكرز والعنب والكمثرى. ويكفيك في الصباح حبات من الجوز والزبيب والخبز لكي تشعر بطاقة ودفء طوال اليوم.

في الخريف تُحضِّر النساء في برطمانات زجاجية يسمونها Banka «المخللات»، إلا أنها ليست مالحة، حيث تطبخ الخضروات مثل الخيار والطماطم والفلفل الرومي مع إضافة ثوم وملح وفلفل أسود في وعاء كبير بإضافة الماء فقط دون

زيت، ثم توضع في تلك البرطمانات الزجاجية وتقفل بإحكام حتى يستفاد منها في الشتاء، حيث تختفي الخضروات تقريبًا، ويوجد أسفل كل بيت سرداب تحفظ فيه تلك الأوعية والأطعمة ويكون هذا المكان باردًا حتى في الصيف. من عادات الأوزبك أيضا تناول الشوربة أولاً ثم تناول أي طعام دسم آخر في الغداء أو العشاء، ولاحظت كثرة استخدامهم للملح، وقد يعود ذلك لقلة مادة اليود، حيث تفتقر أوزبكستان وباقي الجمهوريات إلى البحر وبالتالي ينقص فيها اليود.

الشعب مضياف جدا ولسفرة الطعام قدسيتها ومكانتها، فلا تُرفع بعد الأكل، بل تبقى مفروشة طوال اليوم، فبعد تناول الطعام يأخذون الأطباق الفارغة، ويزيل كل شخص فتات الخبز أو قشور المكسرات والفواكه من أمامه، ثم يستمر تجاذب أطراف الحديث وشرب الشاي الأخضر وهو الشائع في وادي فرغانة، بعكس طشقند حيث يشربون الشاي الأحمر أو الأسود كما يسمونه، ويرجع هذا السبب إلى الجاليات الأوروبية التي سكنت طشقند من روس وتتار وأرمن ويهود.

بعد أن قضيت يومين في بيت ابنة عمي، قررت زيارة مدينة «نمنكان» حيث يسكن فيها عمي، وكان وقتها قد قارب الثمانين عامًا، لقد هاجر أبي منذ أن كان في الرابعة من عمره من وطنه، بينما بقي عمي وكان في الثانية عشرة في بلدتنا «كاسان» ينتظر أبيه المسجون، ولم يلتق والدي بعمي إلا بعد مرور أكثر من خمسين عامًا وتلك قصة أخرى. كنت أشاهد في الطريق الحقول الشاسعة الجراء بسبب الشتاء وقد مدت مد البصر، عدا مجموعات من الغربان تحاول التقاط الديدان وبقايا البذور، وفوق الأعمدة الكهربائية الشاهقة كنت أشاهد أعشاش طائر اللقلق وهي فارغة بعد هاجرت إلى بلاد الهند والسند الدافئة، ولا تعود إلا في الربيع القادم، ولهذا الطير مكانة خاصة عند سكان آسيا الوسطى فلا يؤذونه ولا يخربون أعشاشه.

وصلت «نمنكان» المدينة التي خرج منها الكثير من العلماء، كان بيت عمي عند سكة الحديد في ممر ضيق في حي شعبي قديم وعلى جدار البيوت كنت أشاهد أنابيب الغاز الصفراء الموصلة الى داخل كل بيت.

بعد تناول العشاء خرجت أريد دورة المياة ويسمونها (خلاء) بلهجتهم ولكن دون نطق الهمزة، وهذه الكلمة لم أسمعها في طشقند ولا باقي المناطق في أوزبكستان، وعندما مررت بجانب المطبخ جذبني منظر النار المشتعلة دون وجود أي وعاء أو قدر على الموقد، فلم أعط الأمر أي أهمية، وفي الصباح شاهدت نفس المنظر، فتساءلت في حيرة عن سبب اشتعال الغاز باستمرار ودون وجود أي شي يطبخ، فسألت عن سبب عدم إغلاق محبس الغاز بعد الاستخدام؟ ضحك إبن عمي من هذا السؤال، وأجاب بأن الناس يستخسرون عود الثقاب في إشعال الغاز في كل مرة!

كانت هذه الإجابة صاعقة بالنسبة لي، حيث لم أسمع في حياتي أن يبقى الغاز مشتعلًا طوال الليل، ولا يتم إطفاؤه حتى لا تهدر ثقاب الكبريت! لقد كنت ألاحظ في زياراتي في طشقند لبيوت المعارف سريان ماء الصنبور من دورات المياه، وعلى مدار الساعة دون توقف، وكان سبب عدم إصلاحها رخص المياه وقتها!

عجبا للنظام الشيوعي الذي وفر كل الخدمات الأساسية لمواطنيه، لكنه في نفس الوقت قتل فيهم روح المسؤولية.

تذكرت صورتين رأيتهما من قبل، وتُظهر اجتماعًا لسكان مزرعة «إنجلز» الجماعية في أنديجان خلال الحقبة السوفيتية، وفيهما يمكن ملاحظة شيء عميق جدًا في نظرات الجالسين، وأقصد غياب الحماس، ووجوه جامدة لا ملامح فيها ولا تنتظر شيئًا أو تتوقع أن يتغير شيء.

هذه النظرات ليست مجرد تعبير فردي، بل انعكاس مباشر لطبيعة النظام الذي كانوا يعيشون فيه، ذلك النظام السوفييتي الذي ألغى الملكية الخاصة وأنشأ الدولة الشمولية، فكان أن قتل الحافز الفردي في نفوس الناس، إذ حين تُلغى الملكية الخاصة، وتصبح الأرض والجهد والإنتاج ملكًا للدولة، يختفي الارتباط النفسي بين الإنسان ونتيجة عمله، فيكون الإنتاج واجبًا لا رغبة، وعملاً يؤديه خوفًا لا شغفًا؛ وهو ما يؤدي إلى انطفاء روح الإبداع والابتكار اللذان يحتاجان إلى حرية، وإلى حافز، وإلى شعور بأن الجهد سيعود بفائدة على الفرد أو المجتمع؛ لكن حين يعيش الناس في نظام مركزي صارم، يُملي عليهم ماذا يزرعون، وكيف يزرعون، ولمن يسلمون المحصول، هنا تصبح المبادرة الفردية جريمة، ويؤدي كل ذلك إلى الإحساس باللامبالاة واللامسؤولية، إذ تولد المسؤولية من الشعور بالملكية، وحين يفقد الإنسان ملكيته ينسحب داخليًا، ويصبح أقرب إلى آلة تؤدي واجبها دون روح.

مع الأخذ في الاعتبار بأن الخوف يقضي على الجودة، إذ لا يبدع الخائف ولا يفكر ولا يغامر، والصورة التي رأيتها ليست مجرد مشهد تاريخي، بل وثيقة مرئية لنظام صهر الإنسان داخل قالب واحد، وأفقده جزءًا من ذاته.

أعود إلى أهلي لأشير إلى أن الجميع ينهضون بما فيهم الأطفال مبكرًا مع الفجر لينصرف كل إلى عمله، بينما تقوم النساء بكنس فناء البيت والشارع المقابل أمام الباب، فالشعب الأوزبكي يهتم جدًا بالنظافة. كان عمي في الثمانين من عمره، لكن قوامه ونشاطه تدلان أنه لا يزال في الأربعين، حيث تزوج آخر زوجاته وهو في السادسة والسبعين من عمره، بينما كانت هي في الخامسة والثلاثين من عمرها، ولم يمر عام على زواجه حتى أنجب منها طفلة!

كان يتناول طعاماً طبيعيًا، حيث يُكثر من العسل والثوم والمكسرات، وكل ليلة كنت أشاهده يضع حبات من المشمش المجفف في وعاء ويصب عليها الماء المغلي، وفي الصباح يشربها على الريق، وعندما سألته عن السبب قال: إنها مفيدة للقلب.

كان يحكي لي حكاياته التي لا تنتهي، فقد شارك في الحرب العالمية الثانية ووقع في أسر الألمان، ولولا درايته بالطبخ لكان من المعدومين؛ كنت أساله عن سر نشاطه وقوته، فكان يقول إنه كان يمشي في شبابه من نمنكان إلى كاسان (البلدة التي ننسب إليها) مسافة 25 كم، وكانت من عادته لعق الصحن بعد الأكل، ويقول إنها من السنة النبوية وفيها البركة، كان عمي رحمه الله إنسانًا قنوعا بسيطًا، لم تفارق كلمة «الحمدلله» لسانه، لقد كان يعنيها قلباً وقالبًا، وهذا هو سبب بلوغه المئة من العمر حسبما أعتقد. بعد أن تمضي فترة في وسط هؤلاء، تشعر أنهم بعيدون عن الحياة الصاخبة المدنية، إلا أنهم أكثر راحة وسعادة، ترى البساطة في حياتهم وفي نظراتهم، أعتقد أنهم عرفوا سر السعادة!

عربي في سوق ماشية طشقند

دخلت سوق الماشية الصاخب في أطراف طشقند والباعة والمشترون تتعالى أصواتهم وهم في جدال حول الأسعار والمقايضات، البائع أراه متمسكا في رأيه، والمشتري يحاول أن يخفض السعر قليلاً، وبينهما يقف آخرون كوسطاء خير ليتم البيع، وهؤلاء في الحقيقة باعة أيضا يحاولون قدر الإمكان إرغام المشتري على سعر رفيقهم البائع.

كنت وقتها أعمل في السفارة السعودية، وبمناسبة زيارة صديق لبعض الزملاء في السفارة، ذهبت لشراء خروف، وعندما سألت عن الأسعار وجدتها مناسبة لحد ما، حيث كان سعر الخروف ما بين خمسين إلى سبعين دولارا وقتها.

وعادة قبل أن تتفق مع البائع يكون الجزار واقفًا يستمع باهتمام لحديثكما، يحاول أن يستقرأ من كلامك مدى كرمك وسخاء يدك، حتى يتفق معك هو الآخر على أتعابه، وبعضهم يتفق معك على سعر معين، والبعض يطلب منك كيلو جرامًا واحدًا من اللحم مقابل عمله، وهذا كان المتبع وقتها، كما أن الرأس والمصران تبقى في المسلخ ولا يأخذها أحد، حيث لا تنتشر عادة طبخ رأس الذبيحة كثيرا عند الأوزبك، وآخر النهار يأتي التجار ويشترون تلك الجلود والمصران؛ وكنت خلال حديثي معهم، اتصل بزميلي السعودي في السفارة لإبلاغه بسعر الذبيحة وحجمها، وفجأة قال الجزار وقد انفرجت أساريره: هل أنت عربي؟ فأنا عربي أيضًا.

كانت ملامحه ليست عربية بحتة، ولكنه يختلف عن الأوزبك كثيرًا، قريب لبعض الطاجيك، فسألته ما يعرف من الكلمات العربية فقال متفاخرًا: "سكين، بيت، ماء، أم" وأخذ يعدد كلمات أخرى، فقلت: هل تستخدمونها في حياتكم اليومية؟ فأومأ بالإيجاب، ثم أشرت إلى الخروف وقلت: ما هذا؟ فقال: نعجة. بعدها بدأ ينادي على الآخرين قائلاً: هؤلاء عرب أيضاً.

بدا لي أنه كان أفضلهم في حفظ الكلمات العربية وكان ينطقها صحيحة بمخارجها، وخاصة حرفي الحاء والعين، وهي الحروف التي يعاني السكان المحليين في لفظها ويجدون صعوبة في نطقها.

يعمل معظم الأوزبك من أصول عربية في رعي الماشية، حيث يأتون بها من نواحي بخارى وغجدوان، ويتحدثون الطاجيكية والأوزبكية، ولكن لديهم لغة خاصة يستخدمونها بينهم، يقولون إنها عربية، إلا عند السماع لهم تجد صعوبة في فهمها.

أثناء الحديث بدأوا في التجمع حولي، وشعروا بشيء مشترك يجمعني بهم، وبعد قليل اقترب أحدهم مبتسمًا، وكان ضخم البنية، وسلم عليّ بحرارة، فسألته: هل تعلمون من أين أنتم أو من أي قبيلة عربية؟ فقال: إنهم من العراق، إلا أن البعض الآخر تدخل وقال: إنهم من بني تميم من السعودية أو كما يطلقون عليها اسم "عربستان"، كما هو شائع، إلا أنهم لا يعرفون من أي قبيلة بالتحديد، فالكثير منهم يفتقرون إلى ثقافة ومعلومات عن أصولهم وتاريخهم.

توطدت علاقتي بهم بعد ذلك، وكلما ذهبت إلى ذلك المسلخ، كان الحديث يأخذ طابعًا ثقافيًا وتاريخيًا، وكنت كثيرا ما أسأل نفسي، كيف لعجلة التاريخ أن تنقل أناسا وشعوبا عن مواطنها، كيف جعلتهم يقطعوا كل تلك المسافات، يسيرون في الفيافي وبين الجبال، يدركهم الخوف والخطر من كل ناح، يسيرون وكأن القدر قد أصدر عليهم أحكامه، أحكاما لا يجد المرء مناصا إلا التسليم لها والرضا بها.

أشير إلى أن للدكتور محمد البخاري رحمه الله بحث مهم عن العرب في تركستان باسم: "العرب في بلاد ما وراء النهر" حيث يقول:

"ذكر برتولد مؤسس مدرسة الاستشراق الروسية في كتابه "العالم الإسلامي" الذي نشر عام 1918 أن العرب احتفظوا بشخصيتهم القومية، وتركيبتهم وتسمياتهم القبلية البدوية في تركستان حتى الآن، ولو أنهم فقدوا لغتهم العربية.

وتذكر المراجع المختلفة أن العرب عاشوا بكثافة في تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان. وخاصة في المناطق الجنوبية منها. وتم بذل جهود في العديد من المراجع لتسليط الضوء وإعطاء معلومات تحليلية عن منشأ عرب تركستان انطلاقا من المعلومات المتوفرة عنها، من خلال دراسات ميدانية، ومراجع مكتوبة.

وحاولت المراجع الروسية تتبع طرق الهجرة التي اتبعها العرب للوصول إلى تركستان. خاصة وأن الروس أنفسهم يعترفون بأن تقسيم عرب آسيا المركزية بين الجمهوريات التي تتشكل منها آسيا المركزية اليوم (أوزبكستان، كازاخستان، قرغيزستان، طاجيكستان، تركمانستان)، هو تقسيم رمزي لا أكثر، وأن التحليل يتطلب استخدام مواد تحدثت عن العرب في المنطقة بأسرها، وليس في كل جمهورية على حدة".

حكايتي مع الغجرية: من هي؟ ومن أين أتى قومها؟

في صبيحة أحد الأيام وكنت وقتها جديد عهد في الحياة الزوجية سمعت صوت طرق على الباب فتوجهت ونظرت عبر المرآة السحرية وإذا بامرأة في الثلاثينات من عمرها، فتحت الباب مستفسرا عما تريد، وعرفت من ملامحها أنها امرأة من الغجر، تحمل بيدها حقيبة النساء المعتادة، نظرت إليّ وقالت بنوع من الجدية: لقد جئتك لأمر يهمك كثيراً.

استغربت وقبل أن اسألها ما تريد، جاءت زوجتي من الداخل ركضا وكأنها سمعت تلك اللكنة الغريبة الخاصة بهم وقالت مستغربة: لا تدخلها البيت، دعها تنصرف، قالت لها الغجرية: لماذا تطردينني وقد جئت أساعدكما وأزيل عنكما العمل الضار والسحر الأسود؟ هل هذا جزائي يابنتي؟

بقيت زوجتي مصرة على رأيها ولم تؤثر فيها تلك العبارات، أما أنا فكنت لا أؤمن بمثل هذه الأمور من الأساس، إلا أني كنت فضوليا أريد أن أرى ماذا ستفعل، فسمحت لها بالدخول ولكن بشرط أن تجلس على كرسي عند باب الشقة فقط.

قالت هذه المرة بوضوح أكبر: إن أحد الأعداء قد عمل لنا سحرا أو ربطا حتى لا ننجب وأن هذا العمل مدفون في إحدى المقابر.

كنت أرى زوجتي تتأثر قليلا بتلك الكلمات المخيفة، أما أنا فمنتظر أريد أن أرى ماذا ستفعل لتلغي مفعول ذلك المدفون. وبعد أن جلست على الكرسي طلبت منا إبرة وخيطا ومقص، وأعتقد أنها لم تطلب تلك الأغراض إلا لعلمها أنها متوفرة في كل بيت، أحضرت زوجتي ما طلبته وهي تنظر إليّ بنظرات السخط، وقبل أن تقوم هذه الزائرة بعروضها السحرية، قلت لها: وما المقابل الذي تطلبينه؟ فقالت: كيفما تجود به نفسك.

أخذتْ الغجرية قطعة من الخيط قد يصل طولها إلى الثلاثين سم وقصتها، ومن ثم قصت قطعة أخرى مماثلة، ثم أخذت الإبرة ونفثت برذاذها في رأسها المدبب وغرزتها في ياقة زوجتي، ثم أخذت القطعة الأولى من الخيط وبدأت تقصها قطعا صغارا، تقريبا كل قطعة 2سم وقالت لي: خذ هذه القطع وضعها داخل أذنك اليمنى، ثم أخذت قطعة الخيط الثانية وبدأت تعقدها عقدا حتى أصبحت كأنها كتلة واحدة، وأمرت زوجتي أن تضعها في أذنها اليسرى، وكان كل ذلك يجري باحتراف وثقة نفس بينما أنا مستمتع لهذا العرض الصباحي.

بدأت بعدها الغجرية بالتمتة بقراءة كلمات غير مفهومة تتخلها بعض الكلمات من قبيل: هيا أخرج، هيا انصرف من هذا البيت. ثم نظرت إليّ وقالت بنبرة حادة: أعطني ما في أذنك! وأشير إلى أني وطال تمتمتها كنت أضع إصبعي السبابة على أذني ضاغطا على تلك القطع المقصوصة من

الخيط، وبعد انتهائها مدت يدها وأخرجت القطع، وإذا هي قطعة خيط كاملة وكأنها لم تقص أبدا، ثم توجهت إلى زوجتي وبنفس تلك النبرة المليئة بالثقة طلبت منها أن تخرج الخيط المعقود في أذنها وإذا هو محلول كأنه لم يعقد قط.

هنا انتابني شيء من الدهشة والإعجاب فقلت لها باندهاش: كيف فعلت هذا؟ هيا أعيدي ما فعلت مرة أخرى!

حينها غضبت الغجرية وقالت: وهل أنا لاعبة خفة حركة حتى أعيدها لك مرة أخرى؟!

نظرتُ إلى زوجتي مبديا إعجابي بما حصل للتو، لكنها كانت لا تزال غير راضية من إدخالها الشقة وفي نفس الوقت خائفة ومندهشة مما رأت.

تناولت من جيبي ما يساوي الدولارين تقريباً وأعطيتها، وكانت وقتها تساوي الكثير، فنظرتْ الغجرية لي باستغراب وقالت بعجرفة: أهذا كل ما تقدمه مقابل ما فعلته من أجلكما؟ هل تعلم أن هذا السحر كان مفعوله سبع سنوات لا تنجبان فيها؟ ثم فتحت حقيبتها اليدوية وإذا بها مليئة بالذهب والأموال وقالت: أنظر كم يدفع الآخرون لي!

قلت لها: لقد اتفقنا من البداية وأنت وافقتي بأن أدفع لك ما تجود به نفسي، ولعلمك فأنا لا أؤمن بمثل هذه الخزعبلات ولكني معجب بحركتك السحرية! فما كان منها إلا أن قامت وهي منفعلة وخرجت قائلة: سوف تبحث عني أيها الشاب ووقتها لن تجدني.

أقفلت الباب خلفها متعجبا من خفة يدها والتي لا يحترفها لاعبوا خفة اليد إلا بعد دراسة وتمارين عديدة.

وواقع الحال فعندما تسير في شوارع المدن الكبيرة في أوزبكستان وخاصة طشقند تلاحظ اختلاف السحنات القومية بين المارة أو بعض من يتسولون في الشوارع والأسواق، تلاحظ سحنة تبدو أقرب إلى ملامح الشعوب في الهند، وهو ما يفرض في النفس سؤالا عن هؤلاء الغجر، من هم؟ ومن أين أتو؟

تقترب منك فتاة صغيرة تطلب منك شيئا ببراءة وخلفها تجد أمها تستطعفك هي الأخرى بنظرات الرجاء والأمل لعلك تهدي إبنتها شيئا مما تجود به نفسك بينما باقي السكان يتطلعون إليك بنظرات تحذيرية فالكل يعلم مدى قوة الغجر في الإيحاء والسلب.

لا تذكر المصادر التاريخية بالضبط زمن هجرات القبائل الغجرية من راجستان الهندية إلى آسيا الوسطى، ويبدو أنها كانت هجرات على فترات متباعدة، ولعل ذلك بسبب شح الموارد وانتشار القحط والجفاف في مناطقهم الأصلية، فاتخذوا طريق الهجرة إلى إيران ومن ثم إلى بعض الدول العربية، ومنها تحولوا شمال شرق واستقروا حول مدينة بخارى التاريخية، إلا أن شاعر الفرس الكبير "الفردوسي" يذكر عن القبائل الغجرية في ملحمته الشهيرة "الشاهنامة" حين يصف أن الملك الخامس من ملوك آل ساسان "بهرام غور" قد جلب من الهند إثنا عشر الف من المغنين والعازفين للترفيه عن رعاياه الفقراء وكيف أنهم أصبحوا عبئا بعد ذلك على البلد بعد أن تركوا الزراعة واستهلكوا البذور، فغضب الملك الساساني عليهم وأمر بمصادرة آلاتهم الموسيقية وأمرهم بالتجوال والغناء في أرجاء البلاد لكسب لقمة عيشهم، ثم اضطروا لمغادرة بلاد فارس بحثا عن رزق ومأوى جديدين، وهو ما يذكره "جمال حيدر" في كتابه "الغجر: ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب".

يطلق عليهم السكان المحليون اسم "لولي luli" ويبدو أنها تحريف لكلمة لوري كما وصفهم بذلك الفردوسي، وفي أفغانستان يطلق عليهم اسم "جوكي Jugi " ولعلها أسماء لأكبر قبيلتين من الغجر في آسيا الوسطى.

لا يعمل الرجال في هذه المجتمعات عادة مع أن القلة اشتهروا بصناعة الخواتم وصياغة الذهب، والغالب يعملون على جمع ما يتم تدويره وإعادة إنتاجه وخصوصا الحديد والصفائح المعدنية.

أما النساء فيقع عليهن مسؤولية توفير لقمة اليوم من خلال التسول والاستجداء وأحيانا أخرى بقراءة الحظ والطالع، ولا ينتشر بين نساءهم الرقص والغناء كما هو معروف عنهم في بعض الدول العربية، ويتميزن بالحفاظ على الشرف، ولم أسمع إلى يومنا الحاضر عن حالات دعارة بينهن.

وهناك نوع آخر من الغجر كنت أرى نساءهم في بداية التسعينات من القرن الماضي يشترين الذهب أو يتعاملن في صرف العملات الصعبة عند مداخل الأسواق، وهؤلاء يختلفن عن غجر آسيا الوسطى، ويبدو عليهن الملامح القوقازية الأوروبية ببشرات فاتحة نسبيا، ويعود أصلهن إلى جمهورية مولدافيا، إلا أنهن وأزواجهن يتفقون مع الغجر المحليين في خروج المرأة لكسب العيش وبشتى الطرق.

لغتهم هي التاجيكية، ويدعي البعض وجود لغة خاصة بهم، وكمثيلاتها من الإثنيات القليلة في وسط من الأكثرية تدور حولهم الكثير من الشائعات والاعتقادات التي لم تثبت صحتها إلى الآن، فمن الاعتقادات الشائعة التحذير من إدخالهم البيوت، وكم سمعت من القصص التي تدور عن سلبهم لكل حاجيات البيت الثمينة بعد أن تقوم السمراء الغجرية بتنويم صاحب البيت مغناطيسيا، ويقوم هو وبمحض إرادته بإحضار مجوهرات زوجته الثمينة ويسلمها لها؛ كما ينصح البعض عندما يدور الحديث حولهم بعدم التواصل النظري مع نسائهم والإكتفاء بردهن؛ وبالرغم من كل ذلك فكثير ممن يسيرون إلى الجوامع في أيام الجمع يتصدقون عليهن بعض المال غير مبالين بتلك التحذيرات والشائعات.

من المستحيل وجود حالات مصاهرة بينهم وبين السكان من الأوزبك أو التاجيك، وأكثر ما يميزهم هي حياة الارتحال والتنقل وخاصة في المواسم والأعياد، حيث يقصدون المدن الكبيرة مثل طشقند وبخارى وفرغانة، فيمضون الأيام والليالي ومن ثم يعودون إلى ديارهم حاملين بعض الملبس والمأكل وغالباً الكثير من المال، ولا تختلف ملابسهم عن السكان الأصليين، ويكاد التعليم العالي عندهم يكون معدوما نظرا لأسلوب حياتهم ونظرتهم للواقع، ولكن هناك بعض الحالات التي سجلت وجودها في السلك الأمني أو التجاري.

يتزوجون في سن مبكرة وتكون كل فتاة مقرونة بفتى منذ أن تبلغ الحادية عشرة من عمرها، وعندما تصل إلى سن الثامنة عشرة يقوم الأهل بإقامة حفل زفافها والذي يقترن عادة بالتبذير والإسراف، وبالنسبة لمساكنهم فهم يعيشون خارج المدن والقرى المحلية في شكل تجمعات في بيوت قديمة وشوارع قذرة أو في خيام مؤقتة، وتتميز أحيائهم ومناطقهم بإهمال التشجير والبساتين على عكس السكان الأوزبك والتاجيك.

من عاداتهم السير والتجوال في الأحياء وبين المباني السكنية خصوصاً في أيام عطلة نهاية الأسبوع، فتسمع تلك الغجرية تترنم بصوت جميل وجهوري حتى أنه يصل إلى أصحاب الأدوار العليا مختلطا بنوع من نبرات الحزن ومشاعر المعاناة،

وهي تتغنى بقصائد الشاعر المتصوف الأوزبكي "بابا رحيم مشرب" الذي عاش في القرن السابع عشر، وخاصة ذلك البيت الذي يصف فيه الدنيا وقد ترك ملذاتها حيث لا بيت ولا ولد، هائما يبحث عن العرفان والرقي للوصول إلى الله.

بتلك الكلمات المؤثرة ومع ذلك الإلقاء الحزين من قبلها، وعادة ما تصحب ابنتها ذات الخمس أو ست سنوات، يتأثر البعض، ويطل عليها من النافذة، ويصيح عليها، فتنظر إليه بينما لا تزال تتغنى ثم تشير لإبنتها إلى الدور الذي هو به حتى تصعد وتأخذ الصدقة أو الإحسان، وعندما تنزل الطفلة، تتوقف هي عن النشيد وتنظر إلى صاحب الصدقة وهو لا يزال ينظر إليها من الأعلى وتبدأ بالدعاء في حقه بصوت جميل ومؤثر.

يقول الغجر في آسيا الوسطى عن أنفسهم أنهم مسلمون يتبعون المذهب الحنفي، إلا أن البعض يشكك في ذلك ويدعي وجود دين خاص بهم، وأنهم لا يدفنون موتاهم، ولا توجد مقابر خاصة بهم، وبما أن الأمور تجري على الظواهر، والله يتولى السرائر، تبقى تلك الأقاويل مجرد تكهنات وإشاعات، بينما يبقوا بشر مثلنا في الإنسانية.

حفل الختان

في إحدى أيام الربيع من سنة 1997 دعاني صديقي نورالدين الذي يسكن بلدة Yangi Yul وتبعد عن طشقند مسافة خمسين كيلو مترا، إلى مناسبة مستخدما كلمة "توي" ومعناها بالأوزبكية حفل زفاف، فتساءلت عن اسم المتزوج، فضحك وقال: "هذا ليس حفل زفاف بالمعنى التقليدي بل حفل ختان". استغربت في البداية، لكني علمت لاحقا لماذا يسمون عملية الختان بالحفل؟

قمت بتلبية طلبه وذهبت بمعية الوالدة وعند وصولنا كان فناء البيت مليئا بالناس والحضور، أدخنة الحطب المشتعلة من أواني الرز تغطي الأطراف، بينما يقف شخص بجانب وعاء الماء المغلي ويُسمى "سماور" بتحضير الشاي وبجانبه ما يقارب من الخمسين إبريقا للشاي. كان المشهد مشهد حفل عارم بالفعل وليس مجرد عملية ختان، وهنا فهمت لماذا يستخدمون كلمة حفل في مثل هذه المناسبة.

أدخلني صديقي إحدى الغرف حيث كان شيوخ القرية وكبار السن يجلسون حول السفرة، وبعد اكتمال العدد قرأ أحدهم آيات من القرآن الكريم ثم قام بالدعاء لأهل البيت وبأن يبارك الله في عمر ولدهم، أما الغرفة المجاورة فكانت مفروشة بأحدث الفرش وفي أطرافها ألعاب أطفال من سيارات وطائرات ورشاشات بلاستيكية، وفي منتصف الغرفة فرش وثير بمخدات جديدة، فعلمت أن عملية الختان ستتم في تلك الغرفة.

يختار الأوزبك فصل الربيع أو الخريف لعملية الختان، ولا تتم في الصيف بسبب الحرارة العالية، كما لا تتم في الشتاء، وذلك خوفا من الالتهابات، وعادة ما يتم ختان الطفل فيما بين الرابعة والسابعة من عمره، بغض النظر عن ألم العملية وصدمة الموقف.

بعد قليل ارتفعت أصوات دق الدفوف، وتم عمل دائرة، وجاء شخص يمسك بلجام جواد وعليه طفل يبدو في السادسة أو السابعة من عمره، وكان يبدو عليه السعادة والفرحة، ويلبس جُبة مقصبة تسمى "تون"Tun وعمامة ذهبية اللون تسمى "سلّة"، أُنزل الطفل من الجواد ثم حملته أمه وقبلته والدموع في عينيها ومشت به حتى داخل الدهليز، ثم إلى الغرفة المجهزة وأرقدته على الفرش.

وارتفع صوت الصرناي، وهي آلة نفخ نحاسية يتروح طولها ما بين المتر والمتر والنصف وتصدر صوتا قويا، وكانت تستخدم في السابق لتحذير المدن من الغزوات والأخطار، حيث تذكر المصادر

التاريخية أن الأمير تيمور استخدم هذه اللآلات لتخويف الفيلة عند غزوه لبلاد الهند عام 1398-1399 ميلادية مما أدى إلى خوفها وتشتتها وبالتالي ألحق الهزيمة بحكم سلاطين دهلي.

يقوم عادة بهذه المهنة طبيب شعبي متخصص يطلق عليه اسم "أوستا" ومعناه المعلم كما هو شائع في بعض الدول العربية، ويستخدم أدوات الختان المعقمة، جيئ بالطفل وعليه ملامح تتراوح بين الخوف والرهبة؛ الضجيج يعلو المكان، وأصوات الصرناي والكرناي لازلت تأتي من الخارج، تم تنويم الطفل على الوسادة والدموع قد امتلأت عينا والده، بدأ الطفل في الإرتباك قليلا، بينما اقترب منه المعلم وأخذ يلهي الطفل بكلمات وأسئلة كقبيل: "هل تحب أن أشتري لك ببغاء؟"، لم يرد الطفل المسكين بكلمة، وبدأ يرتبك حين بدأ والده في خلع سرواله، بينما يحمل أقرباءه الألعاب والهدايا والبعض يمسك النقود بيده.

أمسك المعلم بعضو هذا الصغير بينما ناوله مساعده العتاد اللازم، وماهي إلا لحظات حتى علا صوت صراخ الطفل وبعدها بدأ في البكاء فأخذ والده يقبله ويعطيه نقودا وألعابا لتسليته. أخذ المعلم قطعة من القطن وبعد حرقها وضعها في مكان الجرح، وهذه العملية تساعد في عملية التئام الجرح بسرعة، وبعد تنظيف المكان من الدم، أحضر الأب طاقية وغطى بها عضو الصغير!

عمّت الفرحة الأرجاء، وقام المعلم من مكانه يلاطف الطفل ويقول بصوت عال: "ها قد أصبحت رجلا بحق"، كان والد الطفل يمسح دموعه وكأنه هو المختون، ولعلها مشاعر الأبوة والشعور بمدى الألم والصدمة.

بعد تناول الطعام وتهنئة صاحب البيت، قفلتُ راجعا مع والدتي رحمها الله إلى العاصمة، حيث تجد المدنية والتحضر. إلا أنك تشعر أن الحضارة الحالية قد أخرجت الإنسان من منطقة الراحة والطمأنينة إلى منطقة القلق والخوف، لقد كان الحفل صورة من صور التقارب واللحمة بين الناس في أوزبكستان، حيث يأتي القريب والبعيد لكي يساعد ويخدم صاحب البيت، ويالها من صورة تثري الجانب الإجتماعي والثقافي للمجتمع، وتعطي لمحة عن ثقافة الشعب وطريقة تفكيره.

جاري اليهودي

في عمارتنا التي كانت في وسط طشقند، الواقعة في منطقة مركز6 القريبة من سوق آلاي، كان يسكن في المدخل الأول من العمارة شاب لا يشبه الأوزبك ولا الروس، كنت أسمعه يتحدث الروسية، لكن سحنته كانت أقرب إلى الشرقيين، يشبه الإيرانيين وبعض العرب، حنطي البشرة، أسود الشعر، كثيف الحاجب والشارب. عرفت لاحقًا أنه من يهود بخارى، لم يمكث كثيراً حتى غاب عن الأنظار، فعرفت لاحقاً أنه قد هاجر مع زوجته إلى الولايات المتحدة.

كنت في هذه الأثناء أزور دائرة الجوازات والهجرة المعروفة باسم "آوفير" بالروسية لتسجيل نفسي عندهم بعد كل تجديد تأشيرة، وخلال زيارتي كنت أشاهد مجموعات يهودية تنتظر دورها للدخول على مدير القسم، حتى يحصلوا على إذن بالسفر والهجرة إلى اسرائيل أو الولايات المتحدة. مع الإشارة إلى أن هذا النظام قد استحدث في العهد السوفيتي على عهد جوزيف ستالين، الذي سجن مجموعات من المزارعين في المزارع الجماعية "الكلخوز"، وحرمهم من حرية التنقل، واستحدث هذا النظام للسيطرة عليهم أولاً، وسهولة مراقبتهم ثانيًا.

يعود تاريخ التواجد اليهودي إلى أكثر من 2500 عامًا وخاصة في بخارى، وكان لهم تواجد ملحوظ في سمرقند وقوقند وطشقند، وهناك نوعان من اليهود، نوع أوروبي، يمتلك بعض الصفات الأوروبية، والثاني يهود بخارى وهم شرقيون، ولهم سحنة مميزة.

في سفرتي الأخيرة لبخارى صيف 2023، وتحت ظلال أشجار الصفصاف، رأيت انتشار الأحواض التي استخدمت في الماضي للسقاية، ويوجد الآن 40 حوضا من أصل 150، وبجانب حوض ديوان بيكي يوجد خانقاه مشهورة، وعلى أطرافها حي لليهود وفيه كنيس قديم، لا زال يعمل حتى يومنا الحاضر، ويقدر عدد اليهود اليوم بـ 100 شخص تقريباً.

دخلنا إحدى البيوت التي كانت تعود ملكيتها لهم وقد تحول إلى متحف يحكي تاريخهم في أمارة بخارى. الجدير بالذكر أن الموسيقيين اليهود في بلاط خانات بخارى كان لهم دور بارز في الحفاظ على الموسيقى الكلاسكية للأوزبك والطاجيك، والمعروفة بـ شَش مقام، أي المقامات الستة.

كان البيت من الداخل مزين بالنقوش المزخرفة البخارية القديمة، وفي إحدى غرفه توجد كتابات بالعبرية على جدرانه، كتابات من التوارة عن توحيد الرب. وفي وسط الفناء، يوجد سرداب قديم، وكان فيه قلل وجرات كبيرة، استخدمت لتصريف مياه الحمامات.

رحلة جوزيف وولف إلى بخارى

زاد عدد السياح الخليجين عامة والسعوديين خاصة بعد أن ألغت أوزبكستان شرط الحصول على التأشيرة، واكتفت بإصدار أذونات دخول للبلاد مدتها شهر واحد عند الوصول إلى مطار طشقند، ولوحظ هذا الازدياد في سنة 2023، فخلال الصيف ونهاية الربيع كنت مشغولا بالعمل كمرشد سياحي في طشقند ومن ثم في باقي المناطق الجبلية، وبعدها كانت المؤسسة التي يديرها أخي مسعود، تقوم بحجز تذاكر سفر بالقطار السريع الحديث إلى سمرقند عادة، وإلى بخارى.

أصر أحد السياح وكان من السعودية أن أصحبه إلى سمرقند ومن ثم إلى بخارى، رغم أن مؤسستنا لها مرشدين في تلك المدن، لكنهم لا يتقنون العربية. وافقت ووجدتها فرصة للقيام بزيارة بخارى، حيث آخر زيارة كانت لي عند قدوم وفد مجلس الشورى السعودي عام 2004 تقريباً، وكان رئيس الوفد الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، إمام الحرم المكي الشريف ورئيس المجلس.

سافرنا بقطار آفرا سياب السريع إلى سمرقند، وبعد أن مكثنا بها يومين، استقلينا القطار أيضا إلى بخارى في رحلة استغرقت الساعة والنصف، الجدير بالذكر فإن نفس الرحلة نقطعها في خمس ساعات بالقطارات السوفييتية القديمة.

كانت وجهتنا الأولى قصر "أرك" التاريخي والذي كان مقر الحكم في عهد آل منغيت إبان حكمهم لأمارة بخارى، الأمارة التي بسطت نفوذها على مناطق سمرقند وطاجيكستان الحالية وشمال أفغانستان وأجزاء من تركمنستان الحالية، وذلك في القرن السادس عشر وحتى القضاء عليها من قبل "حركة شباب بخارى" المدعومين من قبل الشيوعيين في سبتمبر 1920.

يقع القصر فوق تلة، وكان بها معبد للنار عند الفتح الإسلامي، حيث كان جل سكان بخارى وما وراء النهر من الزرادشتيين.

يعد نصر الله خان (1806-1860) من أشهر حكام بخارى والذي عرف ببطشه الشديد، وبحروبه المتكررة ضد خانية فرغانة، وللتاريخ صفحات سوداء في ذكر مثالبه ومجازره وبطشه، حتى عرف بـ "نصر الله القصاب".

بعد زيارة هذا القصر، ذهبنا بعربة الريكشا، وعبر أزقة بخارى الضيقة إلى "الزندان" ومعناه في الفارسية السجن أو الزنزانة، وهو عبارة عن بناء من الآجر، مرتفع تصعد إليه عبر درج مرصوص بالطوب أيضاً، في داخله والذي تحول إلى متحف الآن، توجد صور ووثائق وأسلحة وسيوف ورماح تعود إلى ذلك العهد، وفيه أيضا حفرة عميقة، كان السجين ينزل بها ويرمى إليه الطعام والماء من فوق، ومسقف بأخشاب تمنع السقوط. ويوجد في داخل الحفرة نموذج هيكل لرجل مسجون وقد بدا عليه التعب والإنهاك والجوع، شاحب اللون بملابس مشقوقة بالية.

لقد أعاد لي هذا المنظر الوصف الذي يرويه القس الإنجليزي جوزيف وولف Joseph Wolff في كتابه "مهمة في بخارى" الذي نشر أول مرة عام 1845، وترجم إلى العربية عام 2013 من قبل مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية.

يدور الكتاب حول رحلة القس جوزيف إلى بخارى لمعرفة مصير العقيد تشارلز ستودارت الذي وصل إليها في ديسمبر 1838، حيث تم إرساله في مهمة من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية لمحاولة ترتيب تحالف مع الخانات في تركستان ضد الإمبراطورية الروسية، التي كان يمثل توسعها في آسيا الوسطى مصدر قلق للبريطانيين.

قام حاكم بخارى، نصر الله خان (حكم من 1827 إلى 1860)، بسجن ستودارت في زنزانة موبوءة بالحشرات، لأنه فشل في الانحناء أمامه، وإحضار الهدايا، وإظهار علامات الاحترام التي اعتبرها الأمير واجبًا عليه.

في نوفمبر1841، وصل الضابط الآخر الكابتن آرثر كونولي، وهو ضابط اشتهر بأنه صاغ عبارة "اللعبة الكبرى" (المنافسة بين بريطانيا العظمى وروسيا على النفوذ في آسيا الوسطى) إلى بخارى لمحاولة تأمين إطلاق سراح ستودارت. فقام الأمير بسجنه بتهمة التجسس لصالح خانية فرغانة، وفي 17 يونيو 1842، تم إعدام الرجلين ذبحاً.

أثّرت هذه الحادثة بشكل كبير على العلاقات بين الإنجليز وخانية بخارى، حتى وصل الأمر إلى امتناع الإنجليز عن مساعدة الإمارة فيما بعد، ففي أعوام 1864 كانت القوات الروسية القيصرية تواصل زحفها في سهول كازاخستان الحالية، حتى استولت على طشقند عام 1865، فقام الأمير مظفر خان الذي حكم بعد وفاة والده نصر الله خان، بطلب المساعدة من الإنجليز في الهند، إلا أن تلك الحادثة وقفت دون النظر في طلبه، فكان أن سقطت طشقند وفرغانة وسمرقند بيد الروس.

بجانب هذا الوجه المظلم من تاريخ بخارى، إلا أنها مدينة إسلامية عريقة، مشهورة بمدارسها ومساجدها، وخانقاتها وأسواقها وأربطتها، وشوارع تعود بك إلى الماضي، تشعر كيف أنها كانت منبعا للعلم وملجأ للطلبة من تركستان وبلاد الأفغان والتتار والقوقاز، وكيف أنها كانت منارة علم ومعرفة، ترى فيها آثار البخاري والماترودي وابن سينا وعمر الخيام وقتيبة بن مسلم وجنكيزخان وتيمور.

الأسواق في بخارى قديمة ومشهورة، وتحمل أسماء نصفها عربي ونصفها فارسي، طاق زركران، طاق صرافان، طاق تيلباك فروش، والطاق في العربية كما ذكر في المعجم : "ما عُطف وجُعل كالقوس من الأبنية"، وزركران بمعنى الصاغة، وصرافان بمعني الصرافون، والتيلباك هي القبعة الشتوية، وفروش بمعنى الباعة.

كانت بخارى ومنذ القدم مركزا تجاريا مهما على طريق الحرير العظيم، ترتاح فيها القوافل القادمة من الصين والعائدة من بلاد الشرق المهمة، من نيسابور وبغداد والشام، تحمل البهارات والحرير والكتان، ناهيك عن المجوهرات والذهب، إن الأدب الأوزبكي ليزخر بالعديد من العبارات التي تحمل عبارة السيوف الدمشقية والخناجر الجزائرية. في بخارى تلاحظ الفروق في ملامح الوجوه، من ملامح أوزبكية، وطاجيكية، وعربية وإيرانية وقوقازية، لقد كانت بخارى ومنذ أقدم العصور محط أنظار الغزاة والتجار ورجال العلم.

يعد الكاتب الروائي والأديب الطاجيكي صدر الدين عيني أكثر من كتب في رواياته عن بخارى وأسواقها وحكامها وأزقتها، بسرد مشوق ودقيق، وله رواية مشهورة باسم "موت المرابي" وقد قام المركز القومي للترجمة المصرية بترجمتها إلى العربية عام 2003.

الرواية عن طباع البخل والجشع الربوي في شخصية القاري ايشكامبة، وعن أوضاع الفلاحين الصعبة في إمارة بخارى قبيل سقوطها بيد الشيوعيين.

كان صدر الدين عيني من الحانقين على وضع بخارى وقتها وتخلفها الاجتماعي والاقتصادي، وكان يرى في ثورة لينين الشيوعية خلاصا من التخلف حسب وصفه.

الرواية جميلة بصرف النظر عن خلفية الكاتب، وفيها وصف دقيق للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بخارى، ولكن وصفه لطباع القاري ايشكامبة فاق كل التصورات، واختزل فيه جميع الصفات السيئة عند البخلاء والمرابين.

في نهاية الرواية أجاد صدر الدين عيني في وصف المصير المريع للمرابي قاري ايشكامبة، وموته وضياع أمواله في البنوك الروسية في بخارى بعد أن استولى الشيوعيون على سدة الحكم في انقلاب أكتوبر عام 1917.

إن الحديث عن بخارى التي عُرفت بـ"قبة الإسلام"، لا تتسعها هذه المقالة، وإن كل مسجد ومدرسة بها تحتاج إلى صفحات من المعلومات والحقائق والقصص.

سائح هندي في بخارى

تحت هذا العنوان يكتب الكاتب المسرحي واللغوي والمترجم الأوزبكي الإصلاحي عبد الرؤوف فِطْرَتْ المولود في بخارى عام 1886 رواية يتخيل فيها سائح هندي مسلم يقوم بزيارة مدينة بخارى بعد أن سمع عنها المديح من قبل أحد التجار البخاريين في الهند، ويقرر هذا السائح العالم زيارة المدينة ليطلع بنفسه على حقيقة ذلك المدح والإطراء.

درس فطرت دراسته الإبتدائية في مدرسة مير عرب المشهورة في بخارى، وبعد تخرجه منها أدى فريضة الحج وزار الهند والأناضول والقفقاز ثم عاد إلى بخارى، وفي عام 1906 ذهب في رحلة إلى روسيا وزار مدن قازان التتارية وموسكو والعاصمة سان بطرس برج، وفي عام 1909 سافر عبد الرؤوف فطرت إلى تركيا، ودرس في جامعة اسطنبول، وبقي هناك حتى عام 1913.

خلال تلك الفترة أخذت بعض الدعوات السياسية في الانتشار في تركيا وبخاصة حركة تركيا الفتاة، فتأثر فطرت بتلك الدعوات، وأصبح يقارن نظام الحكم الأميري في بخارى والذي كان يشبه إلى حد ما النظام السياسي في الدولة العلية، بالتطور الحاصل في تركيا؛ لكن أكثر ما كان يهتم به المجددون في تركستان هو إصلاح نظام التعليم الذي كان قائما على الحفظ والترديد، مع غياب شبه تام للعلوم النافعة، من حساب وجغرافيا ولغات أجنبية.

أعود للرواية التي ألفها فطرت في اسطنبول وكتبها باللغة الطاجيكية وتم نشرها في عام 1911، كما ترجمت لاحقًا إلى اللغة الأوزبكية والروسية. حيث تحكي في مجملها طبيعة الوضع التعليمي البائس في بخارى، والتي يصفها المؤلف على لسان السائح الهندي، آخذا في شرح عميق الحديث عن عدد مدارس المدينة ومساجدها والأموال التي تصرف على هذه المدارس من أموال الوقف، كما يلفت الكاتب النظر حول بعض الممارسات القبيحة اللاخلاقية المنشترة وقتها، وانتشار الجهل والتخلف والبدع وبخاصة في أضرحة الأولياء، حيث يصف مشاهدات المسافر الهندي عندما يزور ضريح العالم الصوفي المشهور الإمام بهاء الدين النقشبندي، ويروي كيف يتم استغلال الزوار البسطاء من قبل القائمين على المقام، وجعلهم يقبلون الأشجار والبيارق، مقابل أخذ المال منهم.

لقد كان فطرت وغيره من رجال تلك الفترة وبحكم مشاهداتهم للأوضاع في مصر والهند وتركيا، حانقون على ما وصفوه بالاستبداد والظلم من قبل حكام بخارى، وكان من الدعاة إلى ضرورة إصلاح التعليم ورفع الشعور بالحس الوطني والقومي لدى الشعب، وضرورة الاستقلال الفكري والسياسي عن الروس القياصرة، وكانوا يرون مدى استفادة الحكومة الروسية القيصرية من انتشار الجهل والتخلف لدى مسلمي تركستان، لذا كانت هذه الطبقة محاربة من قبل الحكومة في بخارى ومن قبل بعض علماء الدين الذين اعتقدوا بأن دعواتهم تدعوا إلى الحرب على الدين، كذلك الحال من قبل الحكومة القيصرية

التي أدركت خطورة أفكار المجددون، لذا لا عجب إن قلنا بأن هذه الحركة كانت مستهدفة من قبل الجميع. وفي السياق التالي أنقل لكم مقتطفات من الرواية التي أوشك على الانتهاء من ترجمتها إلى اللغة العربية، حيث يقول عبد الرؤوف فطرت فيها:

"وصلنا أخيرا عند كروان سراي (بيوت القوافل)، وتوقفت العربة عندها، جاء عامل النُّزل وبدأ ينزل أغراضي ثم توجه بي نحو حجرة مظلمة، فوضعت أغراضي فيها، وقررت بعدها الخروج لأشاهد المدينة.

تجولت في بخارى مدة يومين إلا أني بدأت أشعر بالملل والضجر، حيث لا أعرف فيها أحدا، فسألت عامل النزل: هل دللتني على مكان أذهب إليه وأُرَوِّحُ فيه عن نفسي؟ فما كان منه إلا أن أراني طريقًا وقال: اذهب إلى بركة ديوان بيكي، فذهبت كما وصف لي وهناك وجدت بركة كبيرة بحق، وعلى أطرافها محلات الحلاقين، وجماعة تجلس في التشايخانة (الجايخانة) يشربون الشاي وقد تشقق بساطها، فذهبت وجلست هناك.

في جهة القبلة من البركة رأيت ميدانا فسيحا وكذلك مسجدا كبيرا، وعلمت أن معظم سكان بخارى يصلون في هذا المسجد، وجل هؤلاء يتوضأون في هذه البركة.

كنت أجلس على دكة من الدكاك المنتشرة حول البركة أشاهد المكان، وبعد قليل جاء اثنان من طلبة العلم وجلسا بالقرب مني، ثم بدأى ينظران إليَّ مدركان في نفس الوقت بأني غريب، كنت قد تململت من الوحدة فقررت أن أبدأ حديثا معهما، فاقتربت وألقيت عليهما السلام، فردا عليّ التحية وقدم أحدهما كأسا من الشاي، فشربته وبعدها سألني: من أين أنت؟ أجبته من الهند، ع أنهما انشغلا في الحديث بينهما وكأنهما نسياني، فتوجهت إليهما متسائلا: أرى طائفة تقوم بتعبئة الماء في هذه القِراب ثم ينصرفون وبعد مدة يعودون ليملاؤها مرة أخرى.. ترى إلى أين يأخذون كل هذه الكمية من المياه؟ أجاب أحدهم: إلى بيوت الأهالي، فتساءلت ولماذا؟ فأجاب للشرب، فسألتهما: وهل أنتما تشربان أيضا من هذه البركة؟ فرد أحدهما وقد بانت عليه ملامح الغضب: وما العيب في هذا؟ فقلت له: هذا فيه ضرر كبير للصحة، فأردف قائلا: يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: {وجعلنا من الماء كل شيء حي}، إذن الماء لا يجلب للإنسان إلا الفائدة، فمن أين يأتي الضرر؟ أجبته: بالطبع الماء لا ضرر فيه للإنسان، ولكن مياه هذه البركة لا أراها إلا مياه قذرة وآسنة، فقال: ومن قال إنها فاسدة كلها؟ فقلت له: أنظر وشاهد كيف إن الكثير من الناس يتوضؤون ويتمضمضون ويستنثرون فيها، والناس تغسل أرجلها المليئة بالطين فيها، وإذا أخذنا في الحسبان ما يقذفه الحلاقون وطباخوا السمك وبائعوا الكوراع فيها، فإن هذه البركة تستقبل نصف طن من الفضلات يومياً.

رد عليّ طالب العلم بتبرم قائلا: ما الذي تريد أن تصل إليه؟ هل تريد ألا نشرب من هذه البركة؟ فقلت له: لا أقول لا تشربوا، ولكن أقول لا تتوضوءا فيها ولا تغلسوا أرجلكم وتنثروا أنوفكم بها، ولا ترموا فيها الفضلات والقمامة، فالماء الذي نشربه ينبغى أن يكون نظيفًا.

وقتها رفع الآذان فتوجهت نحو المسجد وأديت الصلاة، وبعدها قررت العودة نحو الكروان سراي".

إن هذه النظرة لتلك الأحوال، وإن كانت صحيحة في مجملها، إلا أنها لم تشفع للمجددين عند السوفييت، فقد كانوا محل شك وريبة من قبل السلطات السوفيتية، والتي رأت في دعواتهم الفكرية خطرًا يمس الأيدولوجية الشيوعية، وقد أدرك المفكرون أنهم خدعوا بالشعارات الثورية الروسية، إلا أن الوقت كان قد تأخر، وصدرت بحقهم أحكام بالإعدام والسجن والطرد من المناصب.

قام ستالين بعملية أسماها التطهير الكبير، وأعدم المئات من رجال الفكر والأدب، وكان كاتبنا عبد الرؤوف فطرت من أولئك حيث أعدم رحمه الله في الرابع من أكتوبر عام 1938، مع مجموعة أخرى من المفكرين أمثال: عبد الله قادري، وعثمان ناصر، وچولپان.

إن هذه الأحداث تعطي صورة واضحة عن كيفية تفكير الأنظمة القمعية، والتي ترى في العلم والفكر الحر خطرًا يهددها، وتستشعر الأمان والطمأنينة في انتشار الجهل، فالشعب الجاهل العاطل عن التفكير يمكن السيطرة عليه بسهولة.

أشير إلى أن التجار الهنود قد تواجدوا في مدينة بخارى وقرشي وقوقند منذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وتذكر بعض المصادر عددهم بستة إلى ثمانية آلاف هندي معضمهم من الهندوس في وقتها، دون تسجيل للهنود المسلمين، الذين عمل معظمهم في التجارة فكانوا يستوردون الشاي، والتوابل، والقماش الكشميري، والأحجار الكريمة والمجوهرات، وكانت لهم محطات قوافل في بخارى وقرشي.

لم يكن يسمح للهندوسي بإرتداء ملابس السكان الأصليين، بل كان يرغم على لبس جبة سوداء مزينة بنقوش صغيرة، لتميزه عن المسلمين، كما لم يسمح لهم بالزواج من السكان الأصليين، بينما سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، ولكن داخل بيوتهم، وعمل الكثير منهم أيضا في الربا وإقراض المزارعين والعمال بفوائد كبيرة.

يقول الأديب الطاجيكي "صدر الدين عيني" في مذكراته: "كان الهندوس يتجولون في القرى لإقراض من يريد، وبما أن معظم الناس كانت لا تعرف القراءة والكتابة، كان الهندوسي يعطي المال ومعه عصا صغيرة، اسمها "خط چوب"، فإذا دفع المستدين جزءا من المبلغ، قام الهندوسي بقص جزء من قشرة العصا كعلامة على الدفع، وللأسف كان عمال الخان يستفيدون أيضا منهم مقابل حمايتهم لهم، وكذلك في الضغط على من لا يدفع من المستفيدين".

كما يقول: "كان الهندوس يجلسون إلى وقت الظهر في محطة القوافل يقرضون الناس، وبعدها يلبسون ملابسهم التي تميزهم، ثم يخرجون لاسترجاع الديون مع الفوائد الربوية ممن حال عليه الوقت، وكانت لهم في بخارى ثلاث محطات للقوافل، ويعمل ما يقارب من المئة والخمسين من الهندوس المرابون، ويتسمون بالقذارة في ملابسهم ومساكنهم، وتنبعث منهم روائح كريهه لعلها تعود إلى دهن أجسامهم بنوع من الزيوت. وكانت حكومة إمارة بخارى تُعيّن عليهم مسؤولًا لمراقبتهم ومراقبة ما يكسبون من أموال، لأنها كانت تعود عليها بالأرباح أيضًا.

وبعد أحداث ثورة 1917 عاد الكثير منهم إلى الهند وبقيت بعض العوائل منهم التي اندمجت في المجتمع المحلي.

دماء في قصر خدايارخان

خوقند أو قوقان كما يسميها أهلها، مدينة جميلة تقع في وادي فرغانة الزراعي، يشتهر أهلها بالتجارة وبالحرف اليدوية، كانت عاصمة تركستان وفرغانة المعروفة بخانية خوقند في الفترة من عام1700 إلى 1876، قبل أن تسقط بيد جنرالات الإمبراطورية الروسية أواخر القرن التاسع عشر ويهرب آخر أمراءها "خدايارخان" إلى طشقند جيث اعتقل زنقل إلى مدينة "اورينبورغ" في روسيا.

وهناك أبقته السلطات الروسية رهن الإعتقال، لكنه نجح في الهروب، وتوجه نحو أفغانستان، ثم زار مكة المكرمة وأدى فريضة الحج، ثم سمحت له الإمبراطورية الروسية بالعودة إلى مدينته، بشرط الابتعاد التام عن السياسة، غير أنه توفي أثناء عودته ودفن بمدينة هرات الأفغانية عام1882

عندما تزور خوقند وتسأل المرشدين السياحيين عن أهم معالم المدينة، يتبادر على ألسنتهم قصر الحكم التاريخي أو الذي يسمونه "أرك خدايارخان" أي قصر خدايارخان.

زرت هذا القصر عام 2019 وهو قصر كبير مرتفع تصعد إليه عبر ممر من الطابوق عرضه 20 مترا تقريباً، وتقابلك بوابة كبيرة من الخشب المنقوش بزخارف جميلة ودقيقة وذات تفاصيل هندسية كثيرة.

عندما دخلت القصر تذكرت رواية "عقرب في المحراب" للروائي والكاتب الشهيد عبد الله قادري، والتي قمت بترجمتها إلى العربية، فجال في خاطري موقف الحاكم "خدايارخان" وهو جالس على كرسي العرش وحوله رجاله يقفون في خضوع وتذلل، ويدخل عليه كاتب الديوان الشاب "أنور" دون خوف أو جلل، ليسلم نفسه ويطالب بإطلاق سراح صديقه "سلطان علي" الذي كان قد أخذ رهينة حتى يعود، وإلا كان سيُعدم بدلا عنه بعد صلاة الظهر.

استرجعت الحوار الذي دار بينه وبين الخان، فتردد في ذهني صياح أنور في وسط القاعة قائلا: "أمن الدين والأخلاق يا صاحب العظمة والجلالة، أن تطمع نفسك في تلك الفتاة المسكينة التي أحبتني وأحببتها! وأنت المتزوج بالعشرات من النسوة، وتتصرف بهن كما تشاء، وتتخذ مئات الجاريات لشهواتك وغرائزك".

خرجت من القصر عبر ذلك الممر المرتفع، فجال في خاطري صورة "أنور" وهو يسير مكبلا بالقيود نحو حفرة الموت، وأعداءه المنافسين له داخل بلاط الديوان واقفون على جانبي الطريق. وقد طلب أن يتوضأ ويصلي قبل أن يربطوا يديه خلفه، وبعد صلاته قام لكي تربط يداه، فوقع نظره على عدوه الملا عبد الرحمن "العقرب" يقف بينهم، ويبتسم بخبث، ويراه بنظرة التشفي والنكاية.

ألقى أنور عليه كلمات مؤثرة تبين مدى وظاعته وسفالته، ثم استلقى وأتى الجلاد حاملًا الخنجر ليعدمه ذبحًا. هنا يصور عبد الله القادري المشهد كصورة مروعة ومقززة، مثلت فترة من فترات تاريخ خانيات آسيا الوسطى، بمواقف تجلت فيها الشجاعة والرجولة والشهامة في مقابل مواقف الخزي والنذالة.

في روايته صور لنا عبد الله قادري وضع خانات تركستان قبل الغزو الروسي القيصري، حيث كان الاستبداد والظلم سيد الموقف، وبصرف النظر عن الدعايات السوفيتية ضد علماء الدين والحكام ووصفهم بالقدماء الرجعيين، وإلصاق الكثير من الزيف والأكاذيب بحقهم، إلا أن هذا لا يعطينا الحق في غض الطرف عما كان سائدًا وقتها من تفشي الجهل والدروشة والخنوع والذل، وخوف علماء الدين من كل جديد، ودعواتهم المتتالية للشعب إلى الصبر وطاعة ولي الأمر مهما تجبر وظلم.

يقول المستشرق القس الإنجليزي "جوزيف وولف" Joseph Wolff في كتابه "مهمة إلى بخارى" الذي قام برحلة إلى المنطقة عام 1843 لمعرفة مصير اثنان من الضابط الإنجليز أعدمهما نصر الله خان حاكم بخارى: "إن روسيا لو أرادت احتلال هذه البلاد، فسوف تسلك طريق "سايرام" و "آق مسجد" ولن تجد أي مقاومة تذكر، فالشعب المتذمر غير مستعد ليطلق رصاصة واحدة ضد الغزاة".

تبلغ المساحة الإجمالية لقصر خدايارخان 4 هكتارات، ويرتفع أساسه ثلاثة أمتار، وبسبب ارتفاعه يتم الدخول إلى البوابة الرئيسية من الجهة الشرقية، عبر ممر مرتفع. عند المدخل في أعلى البوابة الرئيسية، يوجد نقش مكتوب ومحفور باللغة العربية مكتب فيه: "القصر الأعلى للسيد محمد خدايارخان خان".

تتطابق الحروف مع النمط الموجود على الأبواب المصممة بشكل متقن، وتوجد على اليمين مئذنة مبطنة ببلاط السيراميك. كان طول القصر في شكله الأصلي 138 مترًا وعرضه 65 مترًا، ويتكون من 100 غرفة تقريبا في 7 قصور، تم تزيين العديد من الغرف بالخشب المحفور والمنحوتات الجبسية، والأفاريز، ويعتبر مجلس العرش الأكثر ثراءً، وكذلك غرفة الاستقبال والخزانة، حيث تم تزيين ألواح الجدران والسقف بمناظر زخرفية، وبالعديد من الآيات القرآنية، وأقوال الفلاسفة والحكماء.

كانت هناك قاعة خاصة للمحاكمة والتي أجرى فيها الخان محاكمة مواطني الخانية. وكانت هناك أماكن خاصة للخان وزوجاته، بالإضافة إلى غرف مفروشة بشكل فاخر لأطفاله. وفي أحد الساحات يوجد غرف صغيرة كانت تسكنها الجاريات والعديد من العبيد المخصيين الذين خدموا القصر.

إن الحروب بين إمارتي خوقند وبخارى قد أضعفت الإمارتين، وأدت الصراعات الداخلية على حكم خوقند إلى إضعاف الخندق الداخلي، وبعثرت الجهود للتصدي للغزو الروسي القيصري، حتى أصبحت لقمة سائغة بعد ذلك.

ورق سمرقند

في صيف عام 2022 سافرت كمرشد سياحي ومترجم مع عائلة عربية من طشقند إلى سمرقند عبر القطار السريع في مدة ساعتين وربع مع خدمة ممتازة بعكس القطارات السوفيتية العتيقة.

في سمرقند تستشعر وأنت تجوب آثارها القديمة وكأن الزمن قد عاد بك إلى القرون الوسطى، حيث كانت بغداد ودمشق والقاهرة وأصفهان ومدن الأندلس وغيرها علاوة على سمرقند وبخارى مراكز علم ومنابع ثقافة.

كان الأمير تيمور أو تيمور لنك كما هو معروف في الروايات العربية والفارسية، محبا للعلم والعلماء والصناع والحرفيين مع ما أشيع عنه من بطشه وجبروته، فكان يجلب معه الحرفيين والصناع من المدن التي يغزوها وخاصة بغداد ودمشق وأصفهان ودهلي الهندية، وكان يحب رجال الدين ويحترمهم حتى أنه أوصى أن يدفن تحت أقدام معلمه الشيخ سعيد بركة.

تجولنا في سمرقند وآثارها القديمة والتي تعود جلها إلى عصر الدولة التيمورية، ومن أهمها ضريح ومقام ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قثم بن العباس رضي الله عنهما، وهو أخي عبد الله بن العباس المدفون في الطائف، وسبحان الله فحين يفكر المرء في المسافة الشاسعة بين أخوين أحدهما مدفون في الطائف والأخر في سمرقند ليشعر بالدهشة؛ كذلك زرنا مرصد أولوغ بيك حفيد تيمور الذي كان مهتما بعلوم الفلك والرياضيات، كما زرنا مسجد بي بي خانم زوجة تيمور والذي بناه هدية لها بعد عودته من الهند. ولا بد للسائح من زيارة سوق سياب المشهور حيث تجد الخبز السمرقندي والذي لا يمكن تحضيره في غير سمرقند لنوع الماء والدقيق والهواء أيضا. كما تشتهر سمرقند بنوع خاص من الرز والذي يستخدم معه زيت الكتان ولا يخلط الرز مع الجزر كما هو متبع في طشقند وفرغانة.

كان من ضمن البرنامج زيارة مصنع الورق في إحدى الضواحي القريبة، المكان جميل مخضر ويبدو وكأنه بستان مريح للنظر. وقصة وجود هذا المكان يعود إلى عصور دخول الإسلام المنطقة.

في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور وفي شهر ذي الحجة من عام 133 هجرية وقعت معركة كانت هي الأولى والأخيرة بين المسلمين والصينيين على ضفاف نهر طلاس في قيرغيزيا الحالية، وكان قائد المسلمين أبو مسلم الخراساني وزياد بن صالح الحارثي، وقائد الصينيين قاو شيان تشي، وفي ذلك تقول المصادر التاريخية أن الصينيين أرادوا الإمساك بزمام الأمور على طريق الحرير الكبير، ومصادر أخرى تقول أن أهالي فرغانة أرادو الإستعانة بهم ضد هجومهم على طشقند، ولا يوجد عدد واضح لأعداد الجيش الصيني ولكن يقدر عددهم بثلاثين ألفا حسب المصادر الصينية، ومئة ألف حسب المصادر العربية.

كانت نتيجة المعركة انهزام الجيش الصيني، وبذلك توقفت مطامعهم نهائيا في آسيا الوسطى، وأسر منهم قرابة عشرون ألفا، فأرسلهم زياد بن صالح الحارثي إلى سمرقند. وحتى يفتدي الأسرى أنفسهم من الأسر عرضوا على المسلمين تعليمهم سر صناعة الورق، وبذلك بدأت هذه الصناعة في سمرقند ومن ثم انتشرت في بغداد والقاهرة حتى وصلت إلى الغرب.

يقول صاحب المعمل: إن هذه الحرفة استمرت في سمرقند حتى بدايات القرن السابع عشر ولكن وبسبب الحروب المحلية أخذت في الاختفاء، وبفضل الكتب توصل مرة أخرى إلى إحياء هذه الحرفة العريقة.

كانت فتاة تقوم بنزع لحاء أغصان التوت ومن ثم تضعها في قدر كبير وبه ماء مغلي مدة خمس ساعات من الزمن، أما الأغصان فتستخدم كحطب لزيادة الاشتعال، ثم تؤخذ هذه اللحاء وتوضع في مدقة تعمل بواسطة دولاب الذي يستمد قوته من الماء الجاري، يتم فيها سحق اللحاء ولمدة ثماني ساعات بقوة ضغط تساوي ثلاثين كيلو جراما، والمدقة الواحدة تستوعب خمس الى ست كيلو جرام، وهذه الكمية تكفي لانتاج ثلاثمئة ورقة.

بعد سحق اللحاء توضع في حوض مربع حديدي الشكل ويتم خلطها، ثم تصفى بغربال مربع الشكل وبعد تصفيتها من الماء يوضع الخليط بين لوحين من الخشب ويوضع عليها حجر وزنه يقارب الأربعين كيلو جراما ضاغطا على الورق مدة يوم واحد.

بعد أن تنشف الأوراق تؤخذ إلى طاولة حيث يتم صقلها بواسطة حجر العقيق لتكون ملساء جاهزة للكتابة عليها، وبدون الصقل يكون الورق خشنا لا يمكن الكتابة عليه.

يقول العامل إن الأوراق العادية المستخدمة الآن لا يتجاوز عمر بقائها مئة وخمسون عاما، لكن عمر ورقهم يتجاوز الألف عام إذا حفظت في أجواء مناسبة كما هو حال المخطوطات الإسلامية التاريخية.

توجد صالة مجاورة تعرض فيها المنتجات الجاهزة وبعضها يحتوي على رسومات ملونه عن مساجد سمرقند، ويتم عرضها لتشترى كهدايا لمن أراد.

إن زيارة المدن التاريخية ثقافة قبل أن تكون زيارة عادية، من المؤسف أن أجد اهتمام السياح الأجانب وخاصة الغربيين واليابانيين بكل صغيرة وكبيرة وتوثيقهم للمعلومات بكتابتها في دفتر جيبي، في وقت أرى عدم الاهتمام من قبل السياح العرب والأوزبك المحليين أيضا، لقد كان علماء الإسلام يكتبون الألاف من الصفحات مؤلفين أكبر المؤلفات، لقد نسينا حضارتنا وتاريخنا وبالتالي نسينا أنفسنا، وانشغلنا بالتوافه وتركنا ماهو مهم، والتاريخ لا يرحم الغافلين.

أبها التي في القلب

لقاء بعد أكثر من ربع قرن

كان قلبي يخفق بشدة، وأحاسيس تراودني من كل صوب، لا أعرف أيها أنا، شوق وحنين، وفي نفس الوقت فرحة ورغبة في البكاء، كانت هذه مشاعري وأنا أقود السيارة صاعداً عقبة ضلع، أنظر إلى اللوحات الجانبية التي مكتوب فيها: أبها 40 كم، ياه!! 40 كيلومترا فقط بعد أن كنت بعيدا عنها مدة ثلاثين عاماً؟ وعلى بعد آلاف الكيلومترات؟

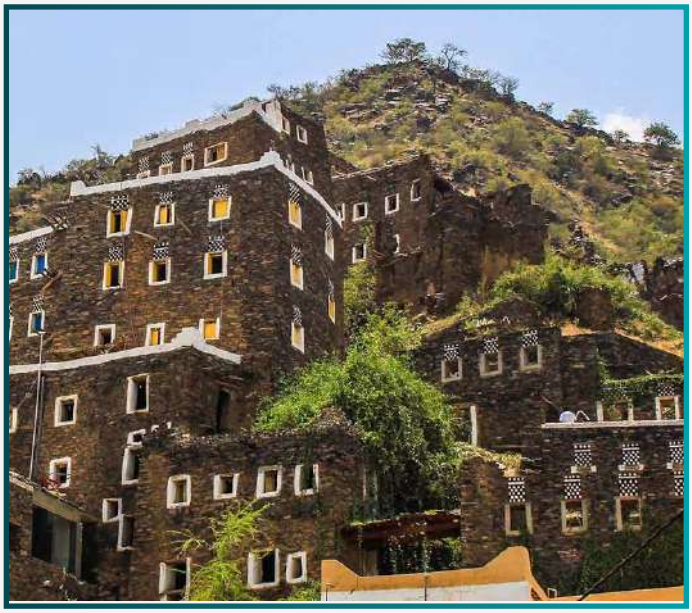

أنظر بين المنعطفات إلى القمة، نعم هناك الحي المطل على العقبة ولكنه يبدو أنه قد اتسع وتغير، ما أجملك يا أبها! ولا أريد لجمالك أن يتغير، أريدك كما كنتِ قبل ثلاثين عامًا، أريد أن أشم هواءك حتى الثمالة، ورائحة ترابك بعد المطر، أريد أن أطفو بين ضبابك الرهيف، إنها كيلومترات بسيطة وأكون في حظنك.

فتحنا نوافذ السيارة، فدخل الهواء البارد المنعش، بينما حر تهامة بقي في الأسفل يتوعد الهابطين. بدأت رئتي تتشبع ثانية، نعم إنه نفس الهواء لم يتغير، لكن السيارات زادت، والطرق اتسعت، والجسور امتدت، والشوارع تغيرت، وأنا في خضم ذلك أبحث فيك عن أي ذكرى، حتى وإن كان حجراً أو دكاناً أو بشراً.

وقفنا في بيت في حي الموظفين، حيٌّ كان صغيرا على جانب الطريق إلى خميس مشيط، لكنه الآن أصبح مدينة مستقلة بها جميع الخدمات. جلس أقاربي الشباب يتشاورون أين نتغدى؟ وأين نسهر؟ بينما أنا أزداد هيجانا واضطرابا، أريد الذهاب إلى بيتنا في الصفراء، أريد رؤية محلنا في الجمعية الخيرية، لا يهمني ماذا نتغدى، ولا يهمني السهر ولا المطاعم، أريد ان أبقى هناك بين جدران بيتنا، لعلي أسمع صوت أمي مرة أخرى.

بقي معظمهم في البيت وأخذني ولد أختي إلى السوق أولا، سوق يحمل بين جدرانه صيحاتنا وصراخنا ونحن نجري، نتزحلق أحيانا على أرضيته الملساء، ونصنع كرة من بقايا الأقمشة لنلعب كرة القدم بين الأذان وإقامة صلاة العشاء. أنظرُ إلى الشوارع وإذا هي ليست كما عهدتها، بيوت جديدة، أسواق وسوبرماركتات مهيبة على جانبي الطريق، أين أنت يا محبوبتي كما تركتك؟

فجأة اقتربت من عند القصبة وبدأت تلك الطلعة ثم ذلك الانحدار إلى وسط أبها، غمرتني السعادة برؤية حبيبتي، بأشجارها، ببيوتها القديمة، نبض قلبي بعد أن لمحت السوق من بعيد، فاقتربت منه، ورأيته كما هو وكأنه يعاتبني، رأيت الحزن في وجهه، لكني وبصوت داخلي أقول له: لا تحزن يا حبيبي فها أنا عدت لأحضن كل كيانك.

اللون كما هو أصفر فاتح بهندسة المعمار في عسير، لكنه قد هرم وشاخ مثلي، توقفت السيارة عند المسجد، نزلت مسرعاً تاركًا قريبي يبحث عن موقف، ونظرت إلى المنارة فإذا هي كما تركتها، تقف شامخة تحكي قصصنا، تريد أن تبوح بقصص أصدقائي، عبد الوهاب وفوزي ويحيى وياسين ونوري وأحمد، تذكرني بأحاديثنا قبيل الصلاة ونحن نرتدي السترات الدافئة، وكان أكبر همنا متى نلعب كرة القدم؟ ومتى ننزل تهامة لنتناول مضغوطها الذي لا يتكرر في أي بقعة في العالم.

دخلت السوق من جهة المسجد، الدور الأول كان فارغاً من الزبائن، أضواء خافتة ومحال مغلقة، مشيت حتى منتصف السوق، وهناك ارتقيت الدرج إلى الدور الثاني حيث في الزاوية كان محلنا، أصعد وأنا أتلفت يمنة ويسرة للمحال، لعلي أرى أحد المعارف، غير أني لم أر أحدا، فكلهم باعة جدد.

اقتربت من محلنا وإذا هو قد انقسم إلى قسمين، قسم يبيع الفساتين الجاهزة والنصف الآخر مقفل وبداخله صناديق وأدوات مبعثرة. دخلت المحل لعلي أرى آخره حيث النوافذ التي كنا نرى عبرها الشارع المحاذي وأصوات السيارات، وصياح المحتفلين بفوز المنتخب، نجري أحيانا ننظر إلى المطر المنهمر القوي، يصاحبه هواء يحمل الملابس والبضائع فنقفلها، لكني تحسرت ولم أجد تلك الصور، وجدت ديكورات حديثة تغطي الجدران والسقوف.

أخبرت البائع اليماني بأن هذا المحل كان يعود لنا قبل أكثر من 35 عاما، فتبسم ولم يبد اي حديث. خرجت من المحل وروحي لا تريد الخروج، تريد البقاء تبحث عن ذاكرة أو لمحة من ذاك الماضي، صوت أبي قادمٌ يريد التأكد من اهتمامنا بالزبائن، يحمل عصاه، بلحيته الكثة البيضاء، أو صوت أخي يصيح على الإريتيرين المزعجين، بأن المقاسات قد نفدت، رأيت يمنة ويسرة لعلي أرى تلك الجدران البيضاء، أريد أي ذكرى لكن كل شيء قد تغير.

خرجت ونظرت إلى الجهة المقابلة، حيث كان محل رحيمي عبد البصير رحمه الله، قبل أن ينتقل إلى خميس مشيط، وبعده أصبح محلا لرحيمي أبو حبيب، فتذكرت مساعده البنغالي وركضه يمنة ويسرة ليالي العشر الأواخر من رمضان، يركض يبحث عن مقاسات الأحذية في وسط موج من المشترين، أصوات الأطفال وصياح الأمهات،

وامعتاض الآباء، صور مألوفة كانت قبل العيد، وبعد أن شاهدت وجال بصري في كل أنحاء سوقنا العزيز، وقفت أتساءل: أين ذهب كل هؤلاء؟ أين ذلك الصخب؟ وأين ذهبت تلك الأيام؟

نظرت إلى السقف البلاستيكي الذي يتوسط السوق، ووجدته كما كان منذ 30 عاما بل أكثر، لم يتغير، كأنه يريد البوح لي بأنه أصيل لا ينسى العشرة والواجب، حزنت له فقد هرم واتسخ من بقايا المطر ولم يعد أحد يهتم به، خرجت من الجهة الأخرى حيث كان سوبرماركت الحناوي، وأمامه موقف السيارات، ثم استدرت شمالا نحو ناصية السوق حيث كان محل العالمية صخر للحاسوب، ذلك المحل الذي كنت وإخواني ننظر إليه متمنين أن يشتري لنا الوالد منه وكان أكبر ذاكرة فيه 40 ميجابايت، كنت أقضي الساعات في هذا المحل أشاهد منبهراً أنواع الحواسيب، حتى كان البائع المصري يمل مني ويطردني، لكني وحين مجيئ الغد وبعد العصر أرجع إليه وكأن شيء لم يحدث، وأظل هناك حتى قبيل المغرب، أو حتى يأتي أخي مسعود باحثا عني، مهددا بالعقاب لأن أبي قد جاء ولم يجدني.

بجانب هذا المحل كانت توجد مكتبة وقرطاسية فيها سوداني، وكنت زبونًا معتادًا عنده كل يوم، ولكن زبون لا يشتري، بل كنت أتخفى بين دواليب الكتب أقرأ الكتب والمجلات، خصوصا مجلة ماجد والعربي والفيصل، فكان السوداني يسمع صوت خشخشة الصفحات دون أن يراني. كانت عناوين الصحف تزخر بالجهاد في أفغانستان ضد السوفييت، وتتحدث عن قرب انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية.

وقفت أمام السوق مرة أخرى أشبع ناظري، ألمحه من رأسه حتى أخمص قدميه، وبعدها عدت إلى قريبي الذي ينتظرني في السيارة، وعدنا بعدها إلى حي الموظفين.

في اليوم التالي كنت على موعد مع زميل الدراسة معن الذي لم أره منذ 30 عاما، درسنا المرحلة الثانوية وقضينا أياما لا تنسى، في هذه الفترة وأقصد أعوام 1990-1991 لم يكن يوجد في أبها محال بيع الكاسيتات الغربية، فكنا نسافر مسافة ساعة إلى خارج مدينة خميس مشيط لنشتري أشرطة الكاسيت الغربية، طلبت منه أن يقلني إلى بيتنا في حي القابل، بيت من دورين، الأول كان لي ولأخي مسعود، كانت مساحة خاصة لنا، في الدور الثاني كانت شقة العائلة.

وبينما نصعد طلعة "القابل"، كانت الأحاسيس الجياشة قد تمكنت مني، انعطفنا يسارا، هذا مكتب العقار الذي كان يعود لوالد أحد الزملاء، وهذا كان محلًا للخبز، وهذا محل الحلاقة، وكلها اليوم لم تعد موجودة. دخلت الحي فإذا هو تقريبًا كما هو، لكن الأشجار نمت أكثر واشتد عودها.

لمحت من بعيد بيتنا، اقتربت ونظرت، وأمعنت النظر، الباب الحديدي كما هو لكنه طلي بطلاء جديد، النوافذ بدت لي أصغر مما كانت عليه. طلبت من صديقي أن يتوقف، نزلت والدموع في مقلتي، ووقفت أمام البيت لعل أمي تفتح لي، لعلها تسألني هل تناولت الطعام؟ وددت لو بإمكاني اقتحام البيت لأصعد إلى فوق حتى أرى أمي، لعلها موجودة هناك، أراها تطبخ في المطبخ، كم أشتاق لحضنها، كم أشتاق لأقبّل

قدميها، أريد أن أرى أبي وهو متوسد وبيده مذياعه، يقلب موجاته، يستمع للأخبار، وصوت المذيع يعلن "هنا لندن هيئة الإذاعة البريطانية" ثم يقرأ عناوين الأخبار، حرب الخليج ودخول القوات العراقية الكويت، ونية أمريكا ضرب العراق، الخ.

علمت أن الزمن لن يعود للوراء، سيمضي غير مبال بي، غير مبال حتى لوجود البشر، وهذه هي الحياة، كم هي غريبة وقاسية، أيام وشهور وسنين تمضي، هي مدرسة يدرس فيها الجميع، مدرسة تعطينا دروسًا رغما عن أنفنا، فيها دروس صعبة، وتجارب مريرة، وأحيانا فصولا مضحكة. ورحم الله أبا العتاهية حين يقول:

بكيت على الشّباب بدمع عيني
فيا أسفًا أسفت على شباب
عريت من الشّباب وكنت غضًا
فيا ليت الشّباب يعود يومًا

فلم يغن البكاء ولا النّحيب
نعاه الشّيب والرّأس الخضيب
كما يعرى من الورق القضيب
فأخبره بما فعل المشيب

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium